الطوفان

رواية

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

اسم الكتـــاب: الطوفان
تـأليـــــــف: د. عبد الناصر النجار
غلاف: عبير سعد
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
سنة النشر:2025
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع
القطع : 20*14

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 1614 / 2025

الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 598 - 5

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

9 789778 445985

وقال الدرويش

الطوفان

د. عبد الناصر النجار

رواية

الإهداء

إلى ذلك الدرويش الذي التقيته

حيث صورة أبي وروعته

حيث رقة شيخي وجفوته

ذلك الدرويش الذي كان نقطة تحول في تاريخي..

إلى هؤلاء الذين لم يعرفوا من الحياة إلا قشرتها

وعابوها

إلى أولئك السادة القليل الذين سبروا أغوار الدنيا وعلموها

إلى نفسي التي ذهبت بي كثيرًا حيث لا أهوى

ثم عادت بي ضاحكةً من جهلي وخداعي في كل مرة..

إلى ذلك القلم الذي كتب ما كنت أُحب أن أكتبه

وإلى تلك الكلمات التي أنا مدين لها بالامتنان والشكر..

إلى التجربة..

أُهدي كلماتي..

عبد الناصر النجار

[١]
لولا كورونا لشككت أن الله موجود!!

في مثل هذه الأحداث أشتاق إلى سماع كلمات الدرويش، ذلك الذي تركته فوق النيزك في الأيام الخالية، أنهيت عيادتي وانطلقت إلى الحُسين، حيث كل شيء مغلق حتى مسجدنا الكبير.
كنت متأكدًا أين سأجد الدرويش، كان نائمًا أمام باب مسجد الحُسين الرئيسي المُطل على الباحة حيث على يمينك المقاهي وهي خاوية على عروشها، وعلى يسارك قوات الأمن لا تحرس أحدًا.. فليس هناك من أحد.
في طريقي إليه قد مررت على محل "بحة" في السيدة زينب حيث كل شيء يغلق أبوابه واشتريت بعض من طعام يكسوه اللحم والعظم، وبعض من ثريد.
الدرويش في حلة فاخرة الألوان.. الألوان الخضراء توشك أن تضيء، وحبات خرز المسبحات عقد من زمرد تضيء وجه البسام كما العادة، وعلى رأسه عمامة من سندس وإستبرق.. جلس حين رآني وقال بكل حب:
- فينك من زمان يا غالي؟ هو أنت متعرفناش غير أيام البلاء؟
قلت له فى خجل:
- مشاغل يا مولانا.

جلس على حافة سور ضُرب حول المسجد، وأشار إليَّ أن أجاوره، فتحت له الطعام وقلت:
بسم الله.. سألني قائلًا:
- الأكل ده لمين؟
قلت له: لك يا مولانا.
سأل مرة أخرى:
- يعني الأكل ده من حقي؟
أومأت برأسي علامة الإيجاب، فنادى بصوت يفيض حبًا:
- هلموا يا أحباب.
من أين ظهر كل هؤلاء!؟ لست أدري..
امتلأت الباحة بملائكة الجن، وشياطين الإنس، وعابري الزوارق إلى الدار الآخرة.
قطط وكلاب وثعالب وأفاعي، قطاع طرق وصانعي إثم، ومعوقون وكسالى وواهمون -كل هؤلاء كان لهم من رغيف الخبز قطعة من خير وفير.
كنت وسطهم أنظر إليهم.. من أين لهم بتلكم السعادة؟ وكيف لهم كل هذا الرضا؟
إنهم البائسون من ظاهرهم، البسطاء من داخلهم، الراضون من قلوبهم، المتوكلون وليس المتواكلون..
إنهم عباد الله الفقراء، الذين لم تعطهم الحياة حظًا من مال، جاه أو سلطان.. إنهم الذين في الفجر يستيقظون وعلى ربهم يتوكلون، وعن عمل.. أي عمل يبحثون،

وفي آخر اليوم يعودون، منهم من جاء بطعام ومنهم من أكله الجوع، ثم هم هنا عند الدرويش يجتمعون، لينادي على الجميع "إنا لمرزوقون".

ركزت على وجوهم كثيرًا فهم في الحلقات قادمون، قال الدرويش:
عيونك تنطق بالتساؤلات، جاي تسألني عن إيه؟
أجبته "عن الأحداث".

ارتشف رشفة من كوب شاي صعيدي، واتكأ على عصاه، وملأ صدره بهواء المكان العليل، وعلت وجهه ابتسامة الرضا وهو يقول:
لولا كورونا لشككت أن الله موجود..
ولولا كورونا لشككت في عدل الله -وحاشاه أن يكون- إن دوام الظلم مخالف لوجود الله، وإن بقاء علو الظالمين منافٍ لعدل الله المُطلق.
اعترضت قائلًا:
- لكن الفيروس لم يختر دينًا.. ولم يختر أرضًا.. ولم ينتقي فقط الظالمين.. الفيروس لم يميز بين صالح وطالح.. ولا بين مؤمن وكافر..
ضحك ضحكة العارفين وقال وقد بدت أسنانه البيضاء الناصعة تلك التي لم تُعرض على طبيب ولم تسقط منها واحدة قط:
- أنت من يقول ذلك!! ثم أردف سائلًا:
- هل في ملك الله شيء خارج قدرته أو إرادته؟!

قلت: لا بالطبع حاشاه.
قال: هل تظن أن الفيروس مأمور أم خارج حدود الأمر؟
قلت: مأمور ككل الخلق.
قال: أتظن أن من يصاب به ربما يكون صدفة أو لوجوده وسط جموع؟!
صَمتُ قليلًا كي أجيب: صحيح.
لكنه أجاب:
في الميزان لا صدفة أبدًا داخل الملكوت إنما هي أقدار وحساب موقوت، إنها فيروسات مسومة من عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد.

بدا على وجهي ملامح الطبيب الذي لا يُعجبه كل الكلام، كنت أُقلب كلماته في عقلي فيقبله تارة ويُنكره أخرى، قلت له وماذا استفاد المظلومين إن هم أُصيبوا أو نجوا؟!
نظر إليّ نظرة المعلم للتلميذ المجتهد في الطريق المظلم ثم قال:
اعلم أن أول طمأنة لقلوب المظلومين مصارع الظالمين، ماذا لو كنت مصلوبًا وجلادك الذي يتمتع بعذابك سقط مغشيًا عليه، أو سقط السقف عليكما، ما حالكم ساعتها؟!
أما الظالم فإن شعوره بالعقاب يقتله، وانكساره أمام المظلوم يُذله، ويصبح السوط في يد المظلوم وهو على صليب الظلم.
إن الظالمين يموتون وهم أحياء..
بينما المظلومين يحيون وهم في القبور..

ألم تقرأ حكاية الفرعون ساعة الغرق؟!
إن إقراره بإله بني إسرائيل أذل على نفسه من كل ذل بني إسرائيل، إن كسر هيبة الظالمين هو حلم كل المظلومين..
إنه العقاب الذي بدأ ولن ينتهي هكذا، إن البشرية لابد أن تدفع أثمانًا باهظة من الظلم والصلف والكبر والعتو، من الإثم والظلم والجور والجحود، تردد صوت قرآن آت من بعيد..
{وما ربك بظلام للعبيد}

[٢]
بلد ملهاش كتالوج

كان الليل قد أرخى علينا سدوله، وبعض من برد الليل قد تسرب إلى جسدي من الجلوس على الرخام، كنت في أمس الحاجة أن أشرب كوبًا من أي سائل دافئ وحبذا لو معه رغيف خبز عليه قطعة جبن وبعض من الخيار أو الجرجير.

ويا سلام لو فيه "حتتين فحم والعين" حتى استدفيء بهم وسط هذا الكلام الذي يصيب نخاعي العقلي دون هوادة..

رآني الدرويش على حالي هذه فقال بهدوء:

ولاد الأكابر ملهمش في الصبر.. قلت له:

- أنا مش من الأكابر.. ولا من ولاد الأكابر.. أنا راجل عادي يا مولانا..

ابتسم بهدوء وقال:

- إنت مصدق اللي إنت بتقوله ده؟!

إنت من المرفهين، وجاي تتفرج على عالم البائسين.. إنت بس صعبان عليك حالنا وقلبك فيه شوية حنان، إنما إنت لا درويش ولا من ولاد الطريقة، إنت لك طريقة لوحدك، إنت مقدرتش تتحمل القعاد على الرخام ساعة..

أدركت صدق كلماته وشعرت بكم الأذى الذي يعيشه البسطاء، استحييت من كلماته ومن طلب كوب من شاي دافيء لكنه أدرك

حاجتي وأشار إلى أحد المريدين أن يحضر لي كوبًا من الشاي الساخن، وقال والبسمة تملأ وجهه:

- خلي نجفة تغسل الكوباية كويس.

نجفة..

تلك الساقطة من ثقب الرذيلة على سجادة التوبة، هي الأخرى لم ألتق بها منذ زمن النيزك الأول.. قلت للدرويش:

- إنت عايز تقول إن الوباء مش هيصيبنا علشان احنا المؤمنين؟!

قال الدرويش:

- لا.. قولًا واحدًا.. لا وألف لا.. هيصيبنا طبعًا.. أولًا احنا مش مؤمنين، احنا حيالة مسلمين، ثم أردف قائلًا:

- إنت عارف الجراح اللي بيتعقم كويس قوي قبل العملية ويعقم العيان كويس بس ميعرفش يعمل العملية، احنا كده.. احنا الشيطان ضحك علينا بطوننا متدينين علشان منبقاش مؤمنين..

شغلتني الجملة وفتحت عيني مستغربًا، أشار الدرويش إلى رجل يلبس جلبابًا أبيض قصير من تحته سروال والرجل على وجهه بهاء وذو لحية كثة طويلة قال الدرويش:

- أهو ده متعقم للعملية كويس، لكن هل هيعرف يعملها ولا لا؟! الله أعلم..

قلت له: مش فاهم كلامك، أكمل حديثه موضحًا:

- إن العبادات ليست أكثر من الاستعداد للإيمان.. أما الإيمان الحق هو أن نخلص في عمارة الدنيا ونحن زاهدون فيها.. حِسبة صعبة على غير العارفين، ثم تابع:

- ممكن تقول احنا فين في الدنيا؟! احنا ولا حاجة.. احنا مش فاهمين الغرض من وجودنا، حد فينا قرأ كويس قوله {إقرأ}؟
كنت قد بدأت أفهم ما يريده الدرويش، نحن أمة لا تعرف دورها الحقيقي، ولا رسالتها التي رشحتها أن تكون خير أمة أُخرجت للناس.. احنا فعلًا أمة تائهة
صنعت كل مبررات فشلها فسقطت في وحل الجهل باسم العلم أو باسم الدين..
وقبل أن أطرح سؤالي التالي ظهرت نجفة، تلك التي لم يغيرها لبس الحجاب، ولا صوت القباب ولا السير في الطرقات الهباب..
مدت يدها بكوب من الشاي وهي تصنع شرخًا في جدار حيائي بنظرة من عيونها التي رسمتها بالكحل، وقالت:
- والله سلامات يا أووستاذ.. كل دي غيبة!!
وحياة سيدنا لك وحشة، ما هي العِشرة متهونش على ولاد الأصول.

أخذت كوب الشاي وشكرتها بهزة من رأسي، قالت:
- نعملولك "شندوشت" حلاوة يدفيك؟!
لم أرد بأي كلمة ولم أرفع رأسي إلا عندما شعرت بأنفاسها تقترب مني بطريقة مريبة، لقد خلعت شالًا تضعه على كتفها ووضعته على كتفي وقالت:
- وحياة غلاوتك في قلبي ما هو راجع..
أنظر إلى هذه المفتونة بأوهامها وأقول في نفسي..

اللهم توبة..
هي البلد دي ملهاش كتالوج؟!
لا نيزك نافع.. ولا وباء شافع..

[٣]
كل ليلة وله نهار يزيحه

كانت تباشير الفجر تلوح وأنا رغم الإجهاد غير مكترث بالتعب ولا رغبة عندي في النوم، جاء المؤذن ليفتح الباب الكبير، ألقى السلام على الدرويش، فرد عليه السلام يتبعه بالاسم .. وعليك السلام يا شيخ تابعي.

قلت للدرويش:

- دا إيه التابعي ده؟ بتاع الفول!!

فقال: هو برضه مش بعيد.

طلبت من الشيخ التابعي أن أدخل معه المسج كي أتوضأ، لكنه رفض بشدة وقال:

- سيبني في حالي الله لا يسيئك..

قالت نجفة في الحال:

- ما تيجي عندنا تتوضى وتستريح شوية.. الفجر لسه قدامه حبه وإنت من أدان العشا هنا والدنيا برد عليك،

أنا خدت أوضة على السطح هواها يُرد الروح..

كل هذا بصوت خافت لا يسمعه غيري، كانت حرارة صوتها تحرق طبلة أذني، ولما لم تجد مني جوابًا استنشقتني في شهيق يملأ أحلامها وقالت:

- يخرب بيت أم ريحتك!!
استجمعت طاقتي وغسلت أذني من هول جنونها، ثم طلبت كوبًا من ماء توضأت به على قارعة الطريق.. كان المؤذن قد شرع في الأذان حتى بلغ النداء لبيت الله فإذا به يقول:
- صلوا في رحالكم.. صلوا في بيوتكم..
الله أكبر الله أكبر.. لا إله إلا الله..

كانت عيون الدرويش تفيض دمعًا وألمًا وشوقًا وندمًا، مسح دموعه بطرف ثيابه وقال:
- مطرودين واحنا على الباب.. فيه حرمان أكتر من كده؟!
نظر إلى السماء قائلًا:
- إن كان على الذنوب فنحن أربابها..
وإن كان على العفو فأنت ربه وربنا..
وعفو الكريم يغلب ذنب اللئيم..
لم يكن للكلمات موضع على لساني، صليت ركعتّي السنة فذًا، ثم نظرت إلى الدرويش أن يكون أمامي في الجماعة تلك، لكنه رفض الإمامة قائلًا:
- كفاية عليا نفسي.. أنا مش قد إني أتسأل عن غيري..
صليت به إمامًا بسورتي العلق والإخلاص، جلس يُسبح بعد الصلاة، وأنا أنتظر أن يُكمل حديثه.. قال وعلامات الهدوء ترتسم على مُحياه:

لكل أجل كتاب.. ولكل بلاء أجل، موجة وتعدي واللي اتكتب عليه القضاء لابد هيشوفه..

صوت قادم من بعيد يعلوا رويدًا رويدًا..

الله أكبر .. الله أكبر..

شبابيك البيوت تفتح تتجاوب مع الصوت.. الله أكبر تهز أركان المكان.. جموع لا مبرر لها، مخالفة لفكرة الوقاية ربما كانت مقدمة كارثة.. قلت هذا بصوت عالي:

- كده مينفعش.. كده غلط.. اللي بيحصل ده يضرنا كلنا.

وقف الدرويش يهتف:

الله أكبر.. الله أكبر..

ثم هتف والناس من خلفه:

يوم العيد العصر..

كورونا مهوش في مصر..

إن الدرويش ليس في حالة طيبة.. مصيبة أن يكون مصابًا، والأنكى أن يكون كل هؤلاء مصابين.. إحنا كده رايحيين الوباء رسمي..

كان الدرويش يقرأني من الداخل، قلت له بغضب مستتر:

- إيه ده!! إحنا كده تايهين مش فاهمين.. احنا بننشر المرض.. كده غلط.. وغلط قوي كمان..

قال الدرويش:

الناس دي طالعة تنتقم من المجهول، من الفيروس والخوف والمرض والموت، الناس الخوف عندها كسر حاجز الخوف..

الناس عايشة خايفة..
خايفة على كل حاجة..
وخايفة من كل حاجة..
الناس طالعة تقول للخوف لا، طالعة علشان تتخلص من خوفها حتى لو التمن المرض، وقوع البلاء ولا انتظاره..
الناس طالعة تعتذر لربنا بطريقتها، والمرة دي الكلام ضد الفيروس ودا ميزعلش حد، كلنا ضد الفيروس..
قلت له:
- بس ده خطر وممكن الدولة تفرض حظر تجوال
قال غاضبًا:
- خطر ؟! خطر على مين؟!
الدولة هتفرض الحظر لكن مش علشان اللي إنت فاهمه، رددت بخوف:
الوضع كده خطر.. يلتفت إليّ الدرويش متمتمًا قلت لك:
هي فيروسات مسومة.. قصة الأقدار أكثر حبكة من كل قصص قرأتها، ومن كل خيال سمعته، ومن كل علم تعلمته، يكفيها فخرًا أن كاتبها الله..

[٤]
أطعم.

الساعة تدق السادسة لحظة وصولي إليه، كان جالسًا عند بائع السبح، ألقيت السلام، أشار لي بالجلوس فجلست، فإذا به يختار مسبحة ذات لون أصفر ويعطيني إياها، أمسكتها وسألت البائع كم سعرها؟

قال:

علشان خاطر مولانا بأربعين جنية، نظر الدرويش وقال:

- إعطيه خمسين.. لم يشغلني الأمر، ناولته الخمسين جنيهًا ومشينا أنا والدرويش ثم قال لي:

- يا بخت من كانت صدقته جوه شِراه، ويا بخت من رفع عن الغلابة الجوع بدون ذُل السؤال، ويا بخت من كان له قلب موجوع علشان غيره.

كنت جائعًا بعض الشيء فأنا لم أتناول أي طعام طوال اليوم، سألته:

- مفيش مكان ناكل فيه؟ أنا جعان والمحلات قفلت، قال:

- فيه عيش ودُقه وممكن ندور على أي بيضتين مسلوقين، ثم نادى بصوت جهوري:

- يا نجفتنا..

وطبعًا نجفة تضيء كل اللحظات المظلمة، ظهرت بملابس خليجية ذات ترتر من اللي بيبرق، وطبعًا غطاء الرأس ظاهر منه كل الشعر الذي يبدو حريريًا، ناهيك عن سقوط الشال على الكتف وظهور حلق على شكل حلقة مجهولة اللون والهوية.

قال الدرويش:

- عايزين نضايف الدكتور أصله جعان، ردت بطريقة مريبة مخلوطة بدلع من النوع اللي بيتباع في الصيدليات:

مش هو بس اللي جعان يا مولانا.. كلنا جعانين.. ثم اقتربت وقالت:

- ألا الحلو بيحب إيه؟

أجبت بهدوء: مش مهم أكل، لما أروح أبقى آكل.

قال الدرويش:

- مستحيل.. اطلعي يا نجفة واعملي أكل للغالي.

تذكرت كلمات الدرويش "يا بخت من كانت صدقته رزق غيره" ، أخرجت بعض المال، ناولته نجفة وقلت لها:

"أطعمي".. أخذت النقود ومعهم أصابعي وقالت:

- يطعمك ما يحرمك يا ساكن في الحتة الشمال.

كان الصداع يطرق باب رأسي من الجوع، فلم أتناول حتى كوبًا من الشاي طوال اليوم، سألني الدرويش عن ذهابي المفاجيء بالأمس، فحكيت له قصة صاحبي بيسو وحبيبته رد في هدوء:

- المجانين في نعيم.. قلت له مكملًا حديثنا من حيث وقفنا بالأمس:

أكمل لي تصورك عما يجري، كان صوت المغرب يؤذن، والإمام ينادي صلوا في رحالكم تخطف القلوب، صلينا سويًا وانضم لنا شخص ثالث، وما أن انهينا الصلاة حتى جاءنا أمين شرطة محذرًا لنا:

- التجمعات ممنوعة وأنا ممكن ألمكم دلوقتي وأحطكم في البوكس..

قال له الدرويش:

- الأكل جاي كمان شوية وهيكون فيه زفر ابقى تعالى وهات الأمين اللي معاك..

تحول الأمين الفرعوني إلى واحد من المحاسيب على أمل حتة لحمة ورغيف..

ومداااد.. يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف..

قال الدرويش الحكاية أكبر من الفيروس، الحكاية حكاية رب الفيروس، احنا طغينا قوي في الأرض

وبقينا مثل من قالوا من أشد منا قوة!

ربنا بيقول للخلق أضعف مخلوقاتي أشد منكم قوة، إحنا في لحظة العالم يكتشف فيها أنه لا قيمة لأي شيء في الحياة.. إلا أن تبقى حي معافى..

الفيروس جاي ومعاه رسايل.. الفيروس مفيش حارس يمنعه ولا قوة تردعه ولا علاج يشفي منه..

من الآخر اللي هيعيش بعد الفيروس هما اللي مكتوب لهم يعيشوا، حتى اللي في أقوى المراكز الصحية

لن ينجو إلا من كان مكتوب له النجاة، قلت له:

- لكن التقدم الطبي بيفرق في النتايج.. رد بثقة غريبة:
- إنت مصدق كلامك ده! الكلام ده مش صح، الوفيات أكتر في البلاد اللي فوق، والفشل أكتر في البلاد المتفوقة، عارف ليه؟!
قلت له فهمني:
قال الناس دي مُصرة كل الإصرار إنها صاحبة الفضل في العلاج علشان كده الأقدار ستتركهم لعقولهم.. تساءلت متعجبًا من كلماته:
يعني نسيب العلم؟! أجابني:
- مطلقًا.. لكن لابد وأن يعرف الطبيب أنه يكتب العلاج ولكن الشفاء مسألة أخرى، تلك بيد الله.. إحنا محتاجين نفهم إحنا مين..
كانت نجفة قد وصلت ومعها طعام من لحم وخبز وبعض من أرز لذيذ، كانت تضع قطعة لحم في رغيف خبز ومعه قليل من الأرز والمخلل فى طبق كبير واللي عاوز ياخد، نادى الدرويش قائلًا:
- يا مظلوم..
فإذا به الأمين الذي يحرس المجتمعين خارج القانون نظير رغيف خبز وبعض من لحم قليل.
كذلك جزيناهم وهل نجازي إلا...
قالت نجفة اعملك سندوتش ولا بتقرف؟!
وحياة مقام سيدنا أنا غسلت إيديا كويس قوي.. حتى شوف.. نصف زراعها كان يمر أمام نظري، قلت لها:
- لا عادي ممكن حتة لحمة في رغيف.. سألت بدلال بتحبها سمين ولا ملكش في السمين؟!
جاوبتها: أي حاجة.. لقمة وخلاص.

قالت: لا الأكل دا مزاج.. ذي الرجالة.. لا تاكل اللي مش عاجبك، ولا تحب اللي مش رايدك..

قلت لها وأنا أنظر في عينيها:
هو النيزك مجاش ليه يا نجفة؟!
قالت وهي تتحول:
إحياة النبي تقول اسمي تاني.. يا حلاوة نجفة وهي طالعة من بؤك.

حدثت نفسي..
الكورونا كان لازم ييجي من زمان..
آآآه يا بلد سايحة على وش جهنم..

[٥]
فندق الشريفة

لقد بدأ الحظر، وليس من الحكمة بمكان أن أُغامر بالعودة رغم كوني طبيبًا، لكن كمائن الحظر قد يغضبها تأخري.. جلسة الدرويش تُذهِب الوقت دون ملل ولا كلل، سألته عن مكان أبيت فيه ليلتي، قال:

- إن ما شالتكش الأرض نشيلك على دماغنا..

شكرته لكنني أريد مكانًا أبيت فيه له باب مغلق وسرير بسيط نظيف، الدرويش لا يجد غضاضة أن يعرض على النوم أمام باب المسجد على قطعة من كرتون لا طاقة لأمثالي بتحملها.

وهنا ظهرت نجفة تعرض على المبيت في حجرتها، تصف السرير وملايته الحمراء اللي كلها شفايف والبخور الجاوي اللي معطره بيه الأوضة، ثم أكملت بصوت يتساقط منه كل ما يخدش الحياة والحياء:

- دا يبقى يوم المنى لما تنورني وتبات عندي، وحياة اللي رمى في قلبي حبك دا أنا كنت أشيلك جوة عيوني.. تصدق لو عملتها ما كنت تقدر تفارقنا تاني ولا إحنا مش قد المقام يا أووستاذ؟!

شكرتها بهدوء وقلت لها:

- أنا عايز فندق أبات فيه للصبح، قالت:

- وإيه الفرق؟ أنا ممكن أكتب على الأوضة فندق واسميه على اسمك، وتبقى أنت أول وآخر زبون يدخله.
- يا ستي الله يصلح حالك أنا متشكر.. عايز فندق لو ممكن.
كان الدرويش قد عاد من دورة المياة ليسمع آخر الكلمات قال:
- وماله.. قومي بينا يا نجفة نحجز له عند البت توحة.
- توحة مين يا مولانا؟! كنت أتساءل.
تحركنا جميعًا إلى فندق الشريفة.. دخلنا من الباب فإذا فتاة أصغر قليلًا من نجفة لكن نفس القطعية ومن نفس التوب، وغالبًا أخت نجفة في الرضاعة -ولا تسألني عن أي رضاعة أتحدث؟! ولا من أي أم رضعتا؟!
توحة أبيض قليلًا من نجفة، أقصر منها في الطول، لبسها كامل لكن ذي قلته مفصلها وكأنه مرشوش لا ملبوس، الفرق بينها وبين نجفة.. إن نجفه في السوق.. وتوحة في الصندوق..
حجز الدرويش لي حجرة، وطلب من نجفة الاطمئنان على نظافتها، سمعت نجفة وهي تتكلم مع توحة وتمسي عليها ببنت العاهرة وكأن هذا وصف مقبول لا سُبة تطير فيها الرؤوس..
نجفة رفعت أسهمي عند توحة حين هددتها لو اقتربت مني، فأصبحت هدفها المنشود.. أطمئننت على مكان المبيت مؤقتًا ثم سألت الدرويش مستكملًا حديثنا:
هي الدنيا رايحة على فين وسط اللي جاري ده؟
كان الدرويش غير مشغول لا بنجفة ولا توحة ولا الفندق ولا أي شيء، الدرويش يراهم من حشرات الأرض التي لم تعرف الغاية من خلقها، وإن كانت الحشرات تعلم..

كان دائما يصفهم بالعالم الغايبة.. العالم اللي محضرتش الفرح علشان كانوا مشغولين.. قال الدرويش:

"من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"

قلت له:

عن أي شيء تتحدث؟

قال:

- كل ما لا يعنيك يجب ألا يعنيك، من كلام أو أفعال أو احتياجات، لا تشتري فوق ما يعنيك، ولا تتكلم في أمر أنت لست طرفًا فيه، ولا تحمل هم أمر غيرك أولى بحمله، قلت له:

- أسالك عن القادم تخبرني أن أدع ما لا يعنيني!

- لا إنما أعني انشغالك بنجفة أو توحة وكأنك تحاول أن تقنع كل منهما بك، وذلك أنك تبدي انزعاجًا منهما، رغم أنهما تشغلان قلبك..

وبينما أنت تدعي ورعًا في لسانك، فأنت سعيد بنجفة وأنها مشغولة بيك، وانبسطت أكتر لما لقيت توحة التي اشتدت بوجودها المنافسة، وعمال تغض في بصرك،

إنت فاكر إن البصر بس في العين؟!

بالغت في الصمت والنظر، أشار إلى قلبي وقال:

- غض البصر ها هنا.. ثم من بعده لا ترى العين شيئًا يفتنها ولو كانت مبصرة..

إن المبتعدين عن الإغراءات الحسية أبناء جسدهم الطيني.. أما أبناء الروح، فهؤلاء لا يرون تلك الأجساد البالية، ولا يشغلهم التفكير

فيها، ولا حتى مقاومتها، أولئك الذين يدورون حولك من الفراشات إنما دليل أنك قطعة من نار..
أطفيء نارك تبتعد الفراشات، وأصلح قلبك يُبعد الله عنك هؤلاء.
إن أول طريق الله أن تُطهر لله قلبك..
فإن القلوب بيوت الله، والله واحد لا شريك له، ولا يقبل في حبه شريكًا..
ألم تره حين قال لخليله "يا إبراهيم طهر لي في قلبك بيتًا أسكنه"؟!

كانت كلمات الدرويش تكشفني أمام نفسي جيدًا، إن كلماته تذكرني بمشرطي الذي أعالج به المرضى، إن أول طريق الله تطهير القلب..
وأول تطهير القلب أن تفرغه مما فيه.. ثم تغسله بماء الندم وتُطيبه بصدق، فلا ترى لكل هؤلاء على القلب من سلطان..
ملحقناش نتكلم عن كورونا.. فكما تعودت يحملني الدرويش إلى أي أرض يشاء بحديثه، في الصباح إذن سوف أكمل معه الحوار.. أحدث نفسي بهذا وأنا أدعوا الله..
عديها على خير يا رب في ذلك الفندق..
فندق الشريفة..

[٦]
وإذا العناية لاحظتك عيونها..

لم أستطع النوم جيدًا في هذا الفندق الذي لا يتناسب واسمه.. في الصباح أيقظتني توحة، فالغرفة لا ترباس لها.
غسلت وجهي في حمام مشترك يستخدمه كل سكان الدور الذي أسكنه، كان الأرق وقلة النوم ظاهرين على معالم وجهي، ولما رأتني توحة هكذا قالت بلسان الطاهرة نجفة:
- هو النوم في الوحدة صعب، والنبي إنت كنت محتاج حد ياخدك في حضنه..
- اصطبحي وقولي يا صبح يا توحة إنتي كمان..
على باب هذا المدعو فندق كانت نجفة تنتظرني، تتفحصني وفاضل تشم ريحتي أو تقولي "شعرة مين اللي على هدومك؟!" ألقيت عليها صباحًا لا خير فيه، سألتني بشغف:
- هو مين اللي صحاك بدري كده؟
أخبرتها أنها توحة، رجعت ومسكت دقنها وقالت لتوحة:
وحياة أمك -بياعة الألبسة- لأوريكي قيمتك، وانساب من فمها كلمات لا يصح في السرد ذكرها، لكنني التفت لأنظر تلك الخراف وهي تتناطح فنالني قُبلة في الهواء الطلق من توحة وهي تقول:
- منتظرينك النهاردة، والمصحف ما هتلاقي حلاوة فندقنا.

يبدو أن للكلمات معاني باطنية تشبه أفكار الدرويش فهمتها نجفة فأصابها غضب جم وقالت على غير عادتها:

- البت دي تقصد إيه بكلامها ده؟ هو إيه اللي حصل بالليل؟

أنا في بؤس مزدوج من قلة النوم، وقلة الأدب، وقلة العقل.. هي مش نقصاكي يا نجفة، نظرت إليها نظرة تحمل فكر الدرويش وقلت في غضب حقيقي:

- فين الدرويش؟

أدركت من نظراتي أنني خارج حيز اللغة الرخيصة، وأنها وصديقتها العاهرة بضاعة مزجاة لا يستوفى بها كيل.. حتى وإن بدى مني بعض الاهتمام إلا أنه اهتمام الجهلاء، وانبهار من لم تضعه الأيام في الوحل، أوصلتني إلى الدرويش الذي رأى السخط واضحًا على وجهي فقال بهدوئه المعتاد:

- النومة كانت متعبة.. نوم العبيد ميصلحش للأسياد.

كنت أريد أن أغضب من الكلمات لكنني أدركت حجم الفجوة الدنيوية فآثرت الصمت، كنت أفرك عيني، واضطراب النوم يجعلني بمزاج غير جيد.

الدرويش ابن شقى، وابن ليل، وابن ويل.. الدرويش ابن اللي محدش يستحمله، قلت له ونحن نتناول سندوتشات الفول والطعمية:

- كلمني عن حال الدنيا.

اعتدل الدرويش وقال:

- هي امتحان فيه ناس تنجح، وناس تسقط، وناس متعرفش إيه الحكاية..

الناس ثلاثة عالم ومتعلم ورعاع.. والحكاية ببساطة أن الكوكب لازم يتكوكب، ثم قال دي السنة الأخيرة في سنوات السماح وبعدها بح خلاص، وقال وعيناه تضيئان يقينًا:

- اللي له حق هياخده، واللي عليه حق هيدفعه.. دي سنة كشف الحساب، بلغة الدنيا اسمه "حساب مرحلة" علشان تبدأ مرحلة جديدة على نضيف، ثم نظر إليَّ مستغربًا وقال:

- إنت مش مركز في اختيارات الفيروس؟

قلت له: هو لا يستثني أحدًا..

- دا بلغة الطب، لكن بلغة القلب الفيروس بيختار..

- مش ملاحظ إن اللي واجب يفلتوا بمالهم أو علمهم أو تدابيرهم هما اللي اتصابوا؟!

مش ملاحظ إن أسياد الدنيا اتصابوا؟! والحرافيش هما اللي اتسابوا؟!

من الآخر دا كشف حساب لآخر ١٠٠سنة، راجع كويس معايا الأعداد والأموات، راجع حجم الخسائر، وحجم السقوط، راجع الخريطة بعد ما تخلص مهمة الفيروس..

شوف اللي سرقوا، قتلوا، وظلموا، أفرادًا وشعوبًا وجماعات، الفيروس في الأول سوى الكل بالأرض؛ يعني حرم أي حد من فكرة إنه في مأمن..

مفيش حد آمن مش بس كده.. لا دا قرر يضرب المستأمنين في مقتل، ودي أول ضربات الطوفان، الماء سيغمر كل شيء ثم تكون

السفينة لمن شاء الله -والله وحده – لهم النجاة.. ثم تكون محاولات أهل الأرض في النجاة من الطوفان.. هنا ستكون الكلمة الفصل {لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم}.

يا صديقي ما يحدث الآن ما هو إلا أنه قد جاء وعد ربك وفار التنور، وحملت الرحمة من كل زوجين اثنين..

إن القادم هو قلب الطوفان، وفيه ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض عيونًا فالتقى الماء على أمر قد قُدر.

ووسط هذا الدمار العظيم ستكون النجاة حيث أراد الله، وإن كانت السفينة من خشب، والموج لا ينجو منه أحد، إلا أن بسيط الأسباب عندما تغلفه يد القدرة وتباركه رحلة اليقين يكون الناجون في النهاية هم المرشحون للهلاك قبل البداية.

يا صديقي إن الأقدار لا تنام، وعلى قدر صعود الظالم تكون روعة السقوط، إن الرامي هو الله وإذا أردت أن تنجو فاجلس بجوار الرامي تسلم.. فالجالسين على أعتابه ناجون بالحياة أو بالشهادة..

إننا في اللحظة الحاسمة التي تُجسد قول..

وإذا العناية لاحظتك عيونها.. نم فالمخاوف كلهن أمان..

كوباية شاي يا بت يا نجفة.. ناداها الدرويش، فلم تسألني إذا ما أردت بعض الشاي أيضًا، وجاءت بكوب واحد للدرويش وقالت بلغة الحواري:

- ابقى خلي الست توحة تنفعك!!

[٧]
إدعي من قلبك مش من قلقك.

جلسنا على المقهى، الإعداد فيه قليلة جدًا، والشارع به بعض المارة، الهواء مُلطخ بتراب الذنوب ورائحة المعاصي.
النكبة لم ترد أحدًا إلى جادة الصواب، حالة الذعر ليس مصدرها الإيمان، لكن الخوف على ترك الحياة، لا شيء تغير في كل المناحي..
"احنا محلك سر" هكذا قال الدرويش.
صاحب المقهى رحب بالدرويش وقال له ادعيلنا يا مولانا، فرد الدرويش بهدوء:
- ليه هو إنت أخرس؟! ما تدعي إنت، ولا مش لاقي وش تدعي بيه ربنا !!؟؟
إدعي إنت لنفسك.. بس من قلبك مش من قلقك.
كانت قناة روتانا تعرض أغنية "اللي باعنا خسر دلعنا"..
نظر الدرويش بأذنيه إلى الكلمات وقال والله عنده حق اللي باع خسر.. كنت أفهم ما يعنيه تمامًا، اللي يبعد عن صاحب الليلة يستاهل الوحل.
انتهت الأغنية، الدرويش يرمقني بتفحص، نجفة تجلس على كرسي تهز بعض من تضاريسها وتقول:

- والنبي عنده حق.. اللي باعنا خسر دلعنا والنبي دي أغنية ع الجرح.

استأذنت صاحب المقهى أن يأتي بقناة إخبارية، اعترضت نجفة قائلة ولازمته إيه النكد ده! ما المحطة الأولانية أحلى وكلها مُزز من اللي يِحلو من على حبل المشنقة، أهو ده عيبك يا أوستاذ، بس أقول إيه "التُقل صنعة".

كانت نشرة أخبار رأس الساعة..

أمريكا.. الإعداد تقترب من خُمس المليون.

إيطاليا.. المنظومة الصحية تنهار.

إنجلترا.. القادم أسوأ..

إسبانيا.. نحن على حافة الكارثة.

مصر.. هما الأربعين حالة اللي معانا في الكيس.

كانت معالم وجهي تتغير مما جعل نجفة تقول:

- وإنت جايلك إيه من تعب القلب ده؟ والنبي ما حد هيموت ناقص عمر ولا حد واخد منها حاجة.

قلت للدرويش:

الأمور تزداد سوءًا.. قال بهدوئه الذي يرفع ضغطي أحيانًا:

- احنا فين والسوء فين.. السوء جاي مع السوق.

لقد كنت مع الدرويش منذ بضعة أشهر على ظهر النيزك، إنه يتكلم عما قبل السقوط العظيم، الدرويش يرى مجرد البقاء حيًا نعمة سوف نشتاق لها يومًا ما، وأن مجرد الحياة في ذاتها رزق لم نحمد الله عليه.

الدرويش متفائل جدًا ونحن نجلس على فوهة الفيروس، شيء يحتاج ثبات انفعالي لم أره سابقًا..
نعم لقد كنا معا على ظهر النيزك، لكن حجم الغبار والتراب والضبابية التي كانت تجلو الموت المحقق كانت تجعل من أي حوار دنيوي متعة لا وقت لممارستها، لكننا الآن أمام حدث مُذِل..
نعم هو كذلك، حدث مُذِل للبشرية جمعاء، حدث لم تستطع سلطة البشر من تحديد مساره، ولا توجيه قنصه ولا النجاة منه، عتاة الجبابرة سحقهم الخوف، وأعظم الإمبراطوريات في طريقها إلى المؤخرة، أما نحن.. فبعيدون حتى عن كل مؤخرة..
يقول الدرويش :
اعلم أن ما قُدر له أن يجري سيجري، وأن الجميع تحت مقصلة العقاب، وأن الذين غلبتهم سلطة القوة قد أذلهم جبروت الخوف..
الآن الجميع خائف.. إلا المتقين.
الآن لم نعد وحدنا من نخاف، لم نعد وحدنا الذين يكسرهم الوجع وينامون من غير عيون مغمضة، كل الذين ظلمونا جاء دورهم في الخوف..
أطفال العراق وفلسطين وسوريا وليبيا واليمن والسودان حق لهم أن يناموا آمنين، إنهم تعودوا النوم على صوت القنابل، وحق على من قتلهم ألا ينام من الخوف.. الخوف من كل شيء.. ومن أي شيء..
الخوف من أبيه وأمه وأخيه وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم اليوم أمر يدميه..

الآن يحق للمظلوم أن ينام قرير العين، أن ينام على جانبه الأيمن ويقول اللهم إني بِتُّ ضيفك وضيفك لا يُضام.. أشهد أنك الله الحق، الملك العدل، الذي لم يلد ولم يولد وما كان له شريك قط.
يا صاحبي إنه الناموس الأعظم..
إنه موسى الرضيع أمام جبروت الفرعون يوم الهلاك الأعظم، إنها نفس الصورة.. الضعفاء من أمامهم البحر والموت غرقًا، ومن ورائهم الفرعون قدرًا وعلى ربهم يتوكلون..
إن البحر سينشق، وسينجوا من شاء الله لهم النجاة، ويغرق الفرعون وجنوده، الآن نحن أمام عظمة الجبار، نحن أمام يوم الحساب وكل شيء هالكٌ إلا وجهه، قلت له:
ومن أدراك أننا المؤمنون، وأنهم الخاطئون؟!
إن العذاب واقع بالجميع قالها بلا تردد:
كلٌ يُبعث على ما مات عليه..
قتلانا في الجنة وقتلاهم في السعير.. ذلك هو الإيمان.

[٨]
الطوفان والسفينة

يبدو أن الفندق له مذاق خاص، خاصة أنه يمنحني فرصة أطول مع الدرويش، استأجرت له غرفة مجاورة، سأبقى هناك ثلاثة أيام بلياليها، مدخل الفندق أقرب ما يكون من مدخل حانة، تلك التي رأيتها في فيلم رصيف نمرة خمسة، كل شيء في هذا الفندق غريب وقديم قدم هذا النوع من الرذيلة.

جلست أنا والدرويش في جانبٍ من هذا المكان حيث مقاعد من خشب الأشجار عليها وسادات من قطن لم يتبدل وحله، الدخان في المكان يحجب كل معرفة، والنساء موديل قديم لكن مرسيدس من بتوع التسعينات، وأمين الشرطة المنوط بحفظ الأمن مشغول بحفظ رزقه من الزبائن، حتى في أيام الحظر..

رجل يضرب على عود، وآخر على رِقٍ بائس..

ومخطرتش على بالك يوم تسأل عني!! من حنجرة يفوح منها رائحة الحشيش الأفغاني اللي لسه واصل مع الحمام الزاجل على موتوسيكل الواد تعميرة الطيار..

الجو أقرب إلى غرزة من النوع الرخيص، لكنه قاع المجتمع اللي طلع فيه خُرم، لأجد ما تحت القاع قاع آخر، نجفة حاضرة شكلًا وموضوعًا، تركتنا وقامت سحبت نفسين احترق لهم فحم الجوزة

ليتصاعد مع دخانها صوت العُتاة الحاضرين "حلاوتك يا نجفة يا نوارة القعدة"، نجفة دماغها خفيف وملهاش في الصنف، لكن حبت توجب في وجودي من باب وإن كان على الرقص نرقص يا عالم رقصونا..

كوبايتين شاي حبر صعيدي لم أمسهما، لكن نجفة والدرويش قاموا بالواجب، قلت للدرويش وأنا غالبًا غير كامل الوعي من رائحة الدخان المغلف بالغبار الذري:

ما تكلمني عن رؤيتك.. قال الدرويش:

- دي فرصتنا ناخد حريتنا.

- من مين ناخد حريتنا؟! سألته:

قال الدرويش دي فرصة مش هتتكرر قبل ١٠٠سنة، مُلاك العالم هيتغيروا، المالك القديم هيتخانق مع المالك الجديد واللي نبوته يفضل عالي، هيبقى معلم الحارة الكبيرة دي، وتكون فرصتنا نغير الكوالين ونقفل دارنا على قدرنا.

احنا محتاجين نبعد عن المعلمين الكبار، احنا مش بتوع اللي جاي، وهي دي فرصتنا للخلاص منه، من الآخر الشيطان واخد أربع أخماس الأرض بلطجة، باقي الخُمس اللي هو احنا، واحنا مكناش عارفين نتفلفص..

جه الطوفان وقدامنا السفينة، فنركب السفينة ونسيب الكورونا ياخد حق الغلابة..

يبدو أن الدرويش دماغه أخف من دماغي، وأنا أصبحت أرى الأشياء اتنين وتلاتة لكنني أوشك أن أفهم.. قيادة العالم هتتغير، واحنا بفضل الفيروس في مرحلة انتقالية

يعني من الآخر ناخد حريتنا وكفاياها عبودية..
لكنني لا أستوعب هناخد حريتنا من قيادة العالم ولا من إبليس؟
ولو إبليس هو اللي سايق العالم أومال ربنا فين؟!
فتح الدرويش عينيه الحمراوين ولم يكن قادرًا على استكمال الحديث.
ظهرت توحة فهي تخصص ليل وطلبت مني أن أتوجه إلى سريري، ونجفة تقف لها بالمرصاد، وأنا أكاد أسقط من الإعياء..
منك لله يا حشيش..
أنا مشربتش عمري سيجارة عادية.
تقوم تيجي قعدتي في غرزة حشيش!!

[٩]
أين الله؟!

استيقظت على صداع يوشك أن يُفجر رأسي، وعلى ذاكرة فارغة من أحداث الليلة الماضية، وقفت تحت الماء قرابة الساعة علني أفيق تمام الإفاقة.

خرجت من تحت الماء لأدخل الحجرة فإذا بتوحة تغير ملاءات السرير وعلى وجهها سعادة لا أفهمها، توجتها بجملة رخيصة:

- إنت مطلعتش سهل خالص..

ذاكرتي عن الأمس خالية خاوية، فقد نمت واستيقظت بملابس خروجي، البنطلون الجينز والتيشيرت الأصفر حتى الحذاء كنت نائم به، أعتقد أن الحشيش الذي استنشقته قد صنع لها هلاوس أحلامها الساقطة.

فتحت حقيبة ملابس الطواريء التي احتفظ بها دائمًا في سيارتي كوني طبيبًا، أخرجت منها بليزر غامق وقميص أبيض وبنطال أسود اللون، وضعت بعض من عطوري التي أحبها، وخرجت إلى الدرويش أريد أن استرد الاطمئنان الذي كدت أفقده.

كان الدرويش أكثر حضورًا مني، جلسنا على المقهى ولأول مرة أطلب فنجانًا من القهوة -ولأنني مُستجد طلبتها زيادة، طلبت من

الدرويش أن يُكمل لي حوار الأمس الذي تذكرت بعض تفاصيله من قراءة ما كتبت قبل أن أسقط مغشيًا عليّ، قلت له:
إذا كان المتحكم في الأرض الآن هو الشيطان..
فأين الله؟!
جاءت نجفة وعليها بعض من غضب يوحي أن لقاءًا بينها وبين توحة قد تم، جلست وهي تقول بغضب:
عيني عليك باردة يا أوستاذ.. منور ولا عريس ليلة الصباحية..
لم ألتفت لكلماتها من النوع الرخيص الذي تستخدمه الأجهزة الأمنية في كسر قيمة أو قامة من لا يسير على هواها، أعدت على الدرويش سؤالي:
- أين الله؟!!
كانت القهوة قد حضرت شربت منها رشفة واحدة، ولأنني لست كبيفًا بدا على وجهي الامتعاض، أخذتها نجفه وشربتها وقالت:
- زيادة!! هو إنت لسه تلميذ!! دا إنت طلعت أوستاااااذ..
ملعون أبو الليلة اللي مش فاكرها دي، وملعون أبو الجهل الموثق على حافة نهر العلم، هكذا حدثت نفسي وأنا على وشك الانفجار، حدثت الدرويش متمتمًا "إحك يا عم الشيخ" فقال:
سيبك منهم دول بس عايشين في الوحل، وإنت لسه بتقاوم، بيحاولوا يقنعوك إنك زيهم من وحل بس الفرصة مجتش، وإنك لو غبت عن وعي مقاومتك هتبقى تالتهم.
شعرت ببعض الارتياح من كلمات الدرويش لكنني أعدت سؤالي عليه أريد جوابًا يُصمت جموح عقلي، فأجاب قائلًا:

- زمان من كام مليون سنة كنا في الجنة، وعند أول معصية مباشرة واضحة اتعاقبنا بحاجتين.. الخروج والسجن.
السجن الأول كان سجن الجسد ده والسجن التاني إننا وسط الملكوت الواسع ده نتحط على الأرض دي وتبقى سجن من نوع تاني..
مش بس كده.. لا..
دا طريق الرجوع للجنة مشروط بالموت، وزي أي سجين فترة سجنه تطول يعشق جدار السجن، ويصبح ما خارج السجن هو الخوف كله..
علشان كده احنا نسينا إن طريق العودة لابد إنه يمر ببحر الموت، واحنا خلاص خدنا على سجن الأرض، لكن الأسوأ من كل هذا إننا داخل السجن اللي احنا فيه ظهر ظُلم جديد.. ظلم عام وخاص، ودخلنا في الشتات الآدمي.
والشيطان لأنه شايف إن احنا سبب طرده المطلق اعتبرنا أعداء دائمين، هو اللي نسج كل أفكار الظلم
داخل سجن الأرض..
- طيب ربنا فين من ده كله!!
- ربنا موجود بس إنت اللي محجوب عنه.. محجوب بذنوبك وعيوبك وجهلك، ولأن اللي عارفين إنه موجود بقوا قليلين كان العقاب الجديد..
- تقصد الفيروس؟!
قال الدرويش:

- لا.. أقصد توابع الفيروس، احنا في سجن من نوع جديد اسمه سجن الرعب، يعني سجن الجسد.. وسجن الأرض.. وسجن الظلم.. وسجن الرعب.. هي دي السجون اللي احنا فيها إلا المؤمنين.. الناس دي عندها رزق خاص جدًا تمن لإيمانها اسمه الأمن والطمأنينة.

القادم رعب عام من النوع الفتاك، وقيامة لم تقم إلا من عند أنفسنا ثم يتميز الناس ففريق يناله الرعب وفريق ينصره الرعب.. هكذا تكون معرفة الله.

كانت نجفة مركزة جدًا على أغنية في التلفاز تقول:

سكر محلي محطوت على كريمة

كعبك محني والعود عليه القيمة

وتجيني تلاقيني لسه بخيري

مش هتبقي لغيري.. أيوه أنا غيري مفيش.

نظرت في عينيّ الدرويش فقال:

{وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا}

[١٠]
مدد يا أسيادنا
محتاجين النجدة

لا يهم كيف انقضت الليلة الماضية فهي خليط من أحلام وكوابيس وفجر تأخر طويلًا، جاء الدرويش إلى الفندق الأيل للسقوط في بحر الرذيلة وكان معه رجل مدنس الهيئة والهيبة والرائحة ونظرة العين.
سألت الدرويش من هذا؟! فأخبرني أنه الحاج سلطان المخاوي.
- مخاوي مين يا عم الدرويش؟!
قال مخاوي الجن.. ومُصر إن أمه أنجبته من لحظة رضا بينها وبين جني من قبيلة البراكسة، ولما بيحضر عفريته تسمع منه كلام غريب.
ما هذا الهزل الذي لا ينتهي!! ما هذه العقول الغريبة!!
لم أرحب به، فهذا السلطان كاذب بالفطرة، لكننا جلسنا نحن الستة.. الدرويش، أنا، سلطان النصاب، نجفة، توحة وشاب صغير مع ذلك المشعوذ.
كان للدرويش هدف غريب لا يتناسب مع علمي وعقلي لكنني أحيانًا أترك أذني في مكان، بينما قلبي وعقلي في عالم آخر، قلت للسلطان:
- أومال فين سمارة؟!

رد بابتسامة مُرة:
- بلاش تخش حواري الناجي منها مسخوط.
ثم أردف قائلًا:
- أنا عايز شوية بخور، ودكرين قوالح من غيط درة مشافتوش عاقر، شوية حبهان ولبان دكر، حبيتن مستكة وشوية شبّه فرز أول واللي تختارهم تكون صبية مخاوية وخالها عمها..

المكان ممتليء ببائعي العطارة كبائعي الإثم وعارضي الرذيلة، غابت نجفة وتوحة قرابة نصف الساعة ثم عادتا، تحملن أدوات الدجل وبعض من العصائر.
دقائق وكان الدخان يملأ المكان وكلمات غير مفهومة وطلاسم أستطيع أن أصنع منها مملكتي لو اتخذت الطريق، الدرويش جالس غير قلق، وشرر النار ميحرقش مؤمن، بينما توحة ونجفة عليهما قلق الممسوك بملاية بيضة في قسم شرطة الموسكي..
سمعت نجفة تهدد توحة وتقول:
- دلوقتي العفريت يظهر ويكشف المستور اللي حصل.
وأخيرًا حضر العفريت..
لم أسمع له جاية، ولم أر دخانًا من عينيه، إنما هي قطعة الشب الألمونيومي تحولت داخل النار إلى شكل غريب أمسكها سلطان النصاب وقال مدد يا أسيادنا، محتاجين النجدة.
كان الدخان يُعطي للمكان هيبة حضور ملك من ملوك الجن، أو على الأقل وزير صحة المملكة ومش مهم يكون لابس ماسك، تغير

صوت الدجال وكلماته وحتى لون بشرته كان خائفًا كخوف المعروضين على ظابط في أمن الدولة، ثم سأله الدرويش:

- إنت مين؟!

قال الدجال:

- أنا الفيروس

قلت له وأنا غير مكترث:

فيروس ايه يا عم المكروب؟!

رد بهدوء كوفيد ١٩ المستحدث..

أنا الآن وحسب الرواية في حضرة الفيروس، صوت التلفزيون من خلفي ينقل الحالة في مصر وأستاذ بكلية الطب يتكلم عن تدخل الإله حورس.

بينما على قناة أخرى يتكلمون عن "الشلولو" العلاج الغادر في الزمن الفاجر.. الدجالين يملؤون المكان.

بركاتك يا جاهلة.. يا أم العارفين..

[١١]
كورونا الرسول

السادسة والثلث بتوقيت القاهرة، نور الليل المخلوط بظلام عتمة الأحداث يزحف نحو النخوة العابرة، الدرويش يُنهي صلاة المغرب الصعب ثم يلتفت ليجدني بجواره، ابتسامة تملأ تعابير وجهه ويفتح ذراعيه ليحتضنني ويقول بعتاب:

- فينك يا سيدنا من زمان، بقالك أيام لا حس ولا خبر، إنت كده بتوحشنا.. بلاش قسوة.. أتمت نجفة كلمات الدرويش قائلة:

- هو معندوش قلب أصلًا يا مولانا، ولو عنده يبقى حتة حجر.. والنبي حتى لو حجر كان داب من اللي له في قلبي، ثم نظرت نظرة تفيض بالغث والسمين وأردفت قائلة:

- سلامات يا أوووستااذ..

كانت حالتي المزاجية عالية، ونور عيني الدرويش وابتساماته تزرع في داخلي الأمل الذي أحبه قلت لها:

- إزيك يا نوجة؟ ليكي وحشة والله.

كادت أن تموت بالسكتة القلبية.. أول مرة أكون رايق كده، وأول مرة أقول لها اسمها متدلع "نوجة"، لقد رسمت الكلمة على وجهها سعادة تفوق كل كلمات الحب والعشق، سكتت وكأنني قلت لها أنني أعشقها.

نجفة أصابها صمت مع تيبس مخلوط بحالة لا يمكن وصفها، نظرتني بتعجب ثم قالت هامسة:

- ما إنت بتعرف تقول أهه..

تغاضيت عن كلماتها والتفتت للدرويش أطلب منه استكمال الحديث من حيث وقفنا المرة الماضية، فقال:

{وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ}

طلبت منه أن يشرح لي المعنى والمقصود، ليسألني:

- قولي آخر أحلامك إيه وأنا اقولك إن الفيروس عملها، هو الحقيقة مش الفيروس لكن رب الفيروس، هو مجرد رسول فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر..

الفيروس مرمغ رؤوس عالية متعالية في الوحل، حط القوة البشرية كلها على الرف، لقد وصل لمن ظن أنه عصي على كل قدرة أرضية وربما سماوية..

الفيروس رجع فلوس مسروقة وأعراض منهوبة وشعوب مقهورة..

تخيل لما الصومال يبقى حلم والمغرب أمل في الهجرة وأمريكا منطقة وباء، وأوروبا محطة موت.

تخيل لما الضعيف يحس بعد العمر كله إن قوة القوي كانت خُدعة.. تخيل لما ترامب يكتب على تويته أمريكا قوية فيرد عليه شاب بسيط ويقول له "في الافلام يا معلم".

كورونا الرسول جاء ليعيد للبسطاء الثقة في ربهم، وللمؤمنين العلو بإيمانهم، والشرفاء يمسح على قلوبهم..

تخيل أن كورونا الرسول يكتب على أبواب كل البسطاء..
{وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}
كورونا الرسول ببساطة لحظة يقين ما بعدها يقين، لحظة إدراك تتكشف معها كل الحقائق المستترة، تخيل أن كورونا الرسول مكتوب على ظهره
{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ}

ابتسامة الدرويش تتجاوز الأزمة، الناس تموت في كل مكان، محطة الإذاعة البريطانية تنشر على شاشات التلفاز المنتشرة في الشوارع أعداد المصابين والموتى وهذا الدرويش لا يأبه بما يحدث.. قلت له بخليط من الاستغراب والتردد والتذمر والتندر:
- إنت إزاى فرحان في موت ناس ملهاش ذنب!!
الناس دي زينا زيها معملتش حاجة، الناس دي ربما كانوا أفضل منا، وربما كانوا في أعمالهم شرفاء، فين الإنسانية هنا؟! مش شايف إن دي دون موارية "لا إنسانية"؟!! قال الدرويش:
- كنت أظنك أعمق من هذا، عن أي إنسانية تتحدث؟!
عن هذه البلاد الديمقراطية التي اختارت رؤساء عدول لهم لكنهم كانوا بالنسبة لنا مجرمي حرب!!
عن أي إنسانية تتحدث!!
عن إنسانية أمريكا في فيتنام وكوريا والعراق؟!
عن إنسانية فرنسا في الجزائر ونيجيريا وسوريا ولبنان!!

عن إنسانية بريطانيا في مصر وفلسطين والعراق!!
عن إنسانية إيطاليا في ليبيا!!
عن أي إنسانية تتحدث!!
يبدو أنهم خدعوك كما خدعوا الجموع، لا إنسانية لنا عندهم في تاريخهم المتوحش، أنا لست شامتًا كما تظن لكنني لست متألمًا لمصابهم، إنني أتذكر اليوم نساء البوسنة المغتصبات، وسجن أبو غريب، وبراميل الموت، وعمر المختار، وغاندي ونيلسون مانديلا والهنود الحمر..
إن ربًا يحكم الكون اسمه العدل.. لا يجوز أن يكون هذا الظلم في ملكه، إنه العدل الإلهي المُطلق، قلت له:
- أنا أعلم كل ما تقول لكن أين إنسانيتنا نحن؟ النبي وقف لجنازة يهودي، كان صوت الدرويش وعينيه
تفيضان رضًا وهدوءً ثم قال:
- وقف لنفس عبرت إلى الجحيم متألمًا أنها تفلتت منه، لكنه لم يقف على قتلى المشركين الذين قاتلوا المسلمين زمنًا طويلًا، لم يقف يوم بدر يبكيهم باسم الإنسانية الكاذبة بل قال لهم "هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟ فإنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا"..
كانت نجفة قد عادت ومعها عصير تفاح وقالت بهدوء العذارى يوم قراية الفاتحة إشرب يا أوووستاااذ.. لأحدث نفسي وأنا أرى نظراتها التي فاضت بكل ممنوع ومُحرم..
- يا ريتني ما قلت نوجة ولا طلعت من بؤي..
إشرب بقى يا أوووستاااذ..

[١٢]
بركاتك يا ثقلي..

الساعة تدق الثامنة مساءً بتوقيت شارع المعز لدين الله الفاطمي النابض بالحياة، هنا التاريخ، وقطرات من الجغرافيا، وأضواء من أعمدة النور الممزوج بنيران الوهم والعشق والألم، أنا والدرويش نسير جنبًا إلى جنب ومن ورائنا بخطوات تسير نجفة.

على أحد الجدران مكتوبُ نص ثوري تم دفنه تحت دهان أبيض كالح..

لون الكلمات الثورية كان مكتوبًا بحروف حمراء تقطر دمًا حتى أن اللون الباهت للتشويش لم يقدر أن يُخفي كلمة يسقط.. لم يبق من الجملة غير الكلمة "يسقط".

كتب الدرويش فوق الكلمة كورونا وكتب من تحتها الظالمين صارت الجملة "كورونا يُسقط الظالمين"

ثم كتب على الحجر الملتحم مع الحجر المكلوم كورونا رمز العدل، وعلى حجر مكسور الحافة يكتب انتخبوا كورونا.. دم جديد.. فكر جريء.. رأي حر..

انتخبوا ابن الدايرة..

التصق الدرويش بالحائط وطلب مني أن أرسم حدود وجوده على الجدار، فتح ذراعيه ورفعهما قليلًا وفتح السبابة والوسطى علامة

النصر بيده اليمنى، رسمت الدرويش على الحائط مفرغًا من كل شر ومن كل شرود، قالت نجفة:

ما ترسمني أنا كمان يا أووووستاااذ..

التصقت بالحائط في وضع الهزيمة، أنزلت غطاء رأسها وفتحت بعض من أزرار الخطيئة الساكنة خلف ضلوعها المكسورة بأيام الوجع البائس، ثنت ركبتها اليمنى فتبين فوق الكاحل ألف فرسخ من السقوط تحت الوباء.. لم ألتفت إليها، هي مش ناقصة وجع قلب.

جاء شرطي من بعيد يحمل هم انتهاء ساعات خدمته، لمح المكتوب على الجدران فتبدل من حمل طيب إلى ذئب متذائب مذؤوب.

لم أعرف كيف خلع الشرطي عن وجهه كل علامات البراءة والبساطة والحنان، وتحول فجأة إلى فرج ملك كسر ضلوع الشرفاء تحت القيد وبلا شرف يذكره السجان، ولا الجدران، ولا حتى الشيطان..

قال الشرطي:

-بطايقك منك له، كان ينادي عبر اللاسلكي:

-قوة تجيني هنا بسرعة.. حالة إرهاب.

أدركت خطورة الموقف حدثته بهدوء:

- الدرويش ميقصدش حاجة هو بس قلقان من كورونا، قال الشرطي:

- درويش على نفسه.. اللي مكتوب على الحيطة ده يجيب تأبيدة واحنا مش ناقصين إرهاب.. قلت للشرطي:

- إرهاب إيه لا سمح الله.. إنت شايف المكتوب؟!
رد بمنتهى الثقة:
- أنا فرد أمن وفاهم الحركات دي كويس، لعلمك منك له أنا اشتغلت في أمن الدولة وفاهم كويس إن دا سيم بين الإرهابيين وأعداء الوطن.. أنتم فعلًا أهل الشر.
كان يتكلم بحرقة من قلبه وكأن الدرويش هو كورونا، أو أن المكتوب على الجدران يمس عرض أحد من أهله، جاءت نجفة تستعرض بعض من قدراتها الساقطة لكن الشرطي قال لها بقوة الجهل وجهل القوة:
- إمشي يا بنت الو*** بدل ما آخدك آداب دول رايحين أمن الدولة يا ** أمك..
تحولت نجفة إلى ضفدعة في أرض صحراء جافة أجبرتها أن تنسحب نحو الطين الأكثر أمنًا من مطرقة الجلاد، جاءت سيارة شرطة بها مجموعة من الملثمين، وسلاح آلي يكفي أن يفتح عكا وضابط برتبة نصف إله، وأصوات سرينة تُفزع حتى الولدان وديدان الأرض ونور الميدان.
أدى الشرطي تحية خوف مخلوط بترجي ترقية لأنه قد أمسك بنا، وقال بهدوء للضابط:
- خلية إرهابية يا باشا، موجودين بعد ساعات الحظر والمكتوب على الجدران كان أصله كلمة يسقط وهم من أكمل الجمل المتآمرة.
- قال الدرويش للضابط:
- الدكتور دا صديقي وكان بيتمشى معايا ملوش دعوة باللي كتبته، ولأنه دكتور مفيش جريمة خرق للحظر.

كان نصف الإله الساكن نفس الضابط يريد أمرًا جللًا يشغل رأي الناس، قال الضابط:

- بطاقتك يا دكتور.. قلت له:

- مفيش معايا بطاقة، أنا لن أترك الدرويش وحده.

ليرد الضابط بلامبالاة:

-طب خدوهم على البوكس.

ركبت أنا والدرويش في السيارة تحت ظلال مدافع وجنود من زمن الحملة، سمعت الضابط يحكي عبر اللاسلكي:

- فيه خلية إرهابية معايا في الطريق، سؤال ألقاه الطرف الآخر على الضابط الباحث عن الترقية ليسأل أحد الحراس:

- هو الشارع ده اسمه إيه؟!

رددت أنا في الحال:

- دا شارع المعز لدين الله الفاطمي.. فقال الضابط عبر اللاسلكي "خلية المعز لدين الله الفاطمي".

وصلنا إلى قسم الشرطة.. إنه يوم الجمعة، يعني أنا والدرويش في التخشيبة حتى صباح الأحد، مفيش نيابة مسائية، وسلومة الأقرع ميعرفش صاحبه.

بركاتك يا صقلي..

ومداااااااد..

[١٣]
دخول التخشيبة كله هيبة

كانت هذه الجملة الأولى التي سقطت عليها عيني على جدار خال من ألوان الحياة الطبيعية ورائحة مختلطة بين الموت والعفن، وقوم ما هم منا ولا نحن منهم في ظاهر الأمر، وزمن مسلوخ من أزمنة الوهن الدائم، قال الدرويش:

- سمي الله وادخل برجلك اليمين.

كنت عايز أقوله دا مش بيت جديد وهنسكنه لكني آثرت الصمت، دخلنا حيث لا حيث، غرفة تقطر بؤسًا لا حدود له، هنا معصرة الظلم بتاعت الحاج مظلوم، أكواب وجراكن وبراميل، لم أجد مكانًا أجلس فيه، بينما الدرويش يقلب عينيه في الأشخاص والمكان، قال الدرويش:

- مداااااااد..

فتبدل الحال على غير فهم مني قام رجل رث الهيئة وجلس على ركبتيه وقبل يد الدرويش وقال مستغربًا:

- مولانا منورنا.. الليلة عيد يا رجالة -اللهم صل على النبي. قال الدرويش:

- الدكتور ضيفنا ويحق له الضيافة، زاد الترحاب وعلت الأصوات واتسع المكان، وجاءوا بفرش لنجلس عليه، جلست عن يمين

الدرويش وأنا منبهر غير مدرك لسير الأحداث وضيق المكان لا يسمح بحرية الكلام.
تحرك كل الموجودين في صف وقبلوا يد الدرويش بأمر من الرجل الرث ذو الهيئة البائسة، ثم التف الناس في حلقة أمامنا وقال الدرويش:
- أنا قلت وحشتوني وواجب عليا آجي أزوركم، فقالوا سيدنا وتاج راسنا، سألهم فردًا فرد:
- أخباركم إيه؟ وسأل بعضهم عن أولاده وزوجته، وطمأن بعضهم عن حياة أهله وأنا منبهر حق الانبهار.. ثم قال الدرويش:
عايزين نتوضى علشان نصلي العشاء جماعة.. بماء قليل توضأ الجميع حتى الذين قالوا أنهم نصارى، شيء ما غير مفهوم وكأن الدرويش قد سحرهم جميعًا، لم يسأل الدرويش أحدًا عن اتجاه القبلة لكنه أقام ونحن معه، قدمني للإمامة فاعتذرت، فأمرني أن أكون خلفه مباشرة، وأرده إن هو أخطأ، قرأ علينا في الركعة الأولى {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا}.
وقرأ علينا في الركعة الثانية..
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا}.
ثم جلسنا.. كان الرجل الرث غريب الهيئة قد أعطى أوامره للسجان بإحضار كباب وكفته تكريمًا للضيف الغالي، وبإشارة من يده منع أن يشرب أيًا من الحضور أي مخدرات في وجود الدرويش.

فُرش الطعام على الأرض وقال الدرويش "بسم الله" مد إيدك يا دكتور متتكسفش البيت بيتك.

أنا جائع فعلًا.. رغم غرابة الأحداث تناولت رغيف خبز وقطعتي طرب ولفيتهم سندوتش وبعض المخلل رغم أني أعاني من ارتفاع الضغط، لكن مش مشكلة..

حضر الشاي بعدها فشربت رغم سوء المنظر، أسند الدرويش ظهره إلى الحائط وقال:

- هي دي الحياة.. سجن واسع وسجن ضيق، والشاطر اللي ميبقاش حد قادر يسجنه.. وسع سجنك تقتل سجانك.. خلي سجنك معاك وين ما تروح يبقى اللي سجنك هو اللي مسجون.. متخليش لحد عليك سلطان لأن صاحب السلطان لا يموت.. سلم أمرك لمولاك يصبح عباده عبيد.

إياك تظن بربك سوء.. دا قلة أدب مع الرؤوف الرحيم سَلِم تَسلَم..

لم أستطع السكوت وأنا أرى هذا الخليط من اللصوص وقطاع الطرق وفاعلي الإثم وأنصاف القوادين، وأفكر "ما هاهنا يكون مثل هذا الكلام".. هذا رمي بالدرر للخنازير.

سألت الدرويش بصوت هادئ:

- إنت بتقول الكلام ده لمين؟!

فقال بهدوئه المعتاد:

- للقلوب اللي هنا دي، سيبك من لبسهم وشكلهم وجرايمهم.. خليك مشغول بقلبهم وخليك فاكر إن كبير الحبس من المحاسيب، يعنى السلطة الحاكمة داخل التخشيبة "تابعه".

الأمر كله لا يعجبني، وندمان إني جيت مع الدرويش وأنا اللي قلت هيتبهدل، أنا اللي تعبت وزهقت، قلبت عيني على جدران التخشيبة في وقت لم يكن يتكلم فيه الدرويش، ثقب انحطاط البشرية كان يصب من هنا صورة بالطباشير لرجلان يمارسان الإثم، جمل غريبة تصلح أن تكون كتابًا أُسميه "رائحة الموت المبكر"، قريب من السقف مكتوب بخط واضح ك"هنا الشعب".. وجملة أخرى "أنت الآن حر"، وثالثة "اقلع خوفك قبل ما تدخل"، ورابعة "من كان رزقه على الله فلا يحزن".

ثم كلمات ساقطات لا محل لها من السرد وسط هذه الكلمات العالية، حَدَثَ أحد الحضور الدرويش قائلًا "ما تحكيلنا حكاية يا سيدنا"..

وبدأ الدرويش يحكي قصة موسى الكليم، والليل يقترب ساعة بساعة، وأنا تقتلني الرغبة في النوم، حتى أنني غلبني النوم فسقطت رأسي على كتف الدرويش.

كانت صيحات أهل التخشيبة تقلق نومي حين يصيحون "الله الله يا سيدنا" مرة عند كل فاصل من الرواية العظيمة، أيقظني الدرويش وقد بلغ في الرواية

{قال فمن ربكما يا موسى، قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، قال فما بال القرون الأولى}

أيقظني صوت آذان الفجر داخل التخشيبة، إنها قوة صاحب التخشيبة لا قوة الإيمان، توضأت بقطرات ماء ميسرة، وسمعت الدرويش يقرأ سورة طه ثم جلس ليُكمل الحديث، وآيات موسى البينات أراها هاهنا القمل والضفادع والدم آيات مفصلات.

غلبني النوم مرة أخرى ولم يوقظني إلا صوت باب التخشيبة وأحدهم ينادي:

- الدكتور والدرويش.. البيه الظابط عاوزكم..

الساعة الآن التاسعة والنصف صباحًا، خرجنا فإذا بنجفة تجر من خلفها محامي تخصص آداب -شكله ممسوك في قضية وملفوف في ملاية سرير.

قَبَلَت نجفة يد الدرويش الموضوعة مع يدي في نفس الكلابش، وقبلت يدي بأحاسيس أخرى توحي إليّ "يا ريتني أنا اللي كنت معاك في كلبش واحد"، اقتربت مني وقالت:

- براءة إن شاء الله يا أوستاااذ، هي عنيك حمرا ليه؟!

- ودا وقته يا نجفة روحي الله يهديكي مش ناقصك ع الصبح..

[١٤]
من حسن إسلام المرء..

كان الذي ينتظرنا مأمور القسم، دخل بنا على حجرة في الممر الجانبي حيث رائحة التعذيب والهواء المُلطخ بالذنوب التي لا تمحوها توبة من أم سبحة، أنين المظلومين يتردد في فناء المكان الظالم حتى هواؤه..

صول في آخر الممر يُصلي وعلى كتفه سوط الجلاد، سقف المكان أسود داكن رغم بياض الجدران، ليس هناك لون حقيقي للظلم، الظلم بلا لون، فالألوان دائمًا لها دعوة حق..

عصفور أحمر داكن يصنع عشًا عند السقف المتعالي عن الجدران وصراخ أطفاله الجوعى يصنع في ذاكرة المكان كهنوت الوجع والجوع.

النور الحالك الظلمة في الممر يعطيك شعورًا أن في آخره يجلس ملك الموت بكل جبروته وبكل خوف يملؤ جنباتك..

على الأرض وطن معصوب العينين خائر القوى مربوطة يديه خلف ظهره، وثيابه خليط بين كل الألوان الممزوجة بلون الدم.. الخوف سيد المكان والزمان وسجادة صلاة الصول..

فكرت أن أجلس بجوار الوطن المربوط على الأرض لكن الدرويش قال بصوت واضح يحذرني "من حسن إسلام المرء".. فهمت أنه يأمرني أن أدع ما لا يعنيني..

في هذه اللحظة باب من فولاذ يُفتح، ليكشف عن حجرة مكيفة الهواء وإن كانت رائحة الدخان غالبة عليها، مكتب فخم خلفه الرجل المسؤول عن إقامة العدل، عن يمينه شيطان من بني الإنس يكتب كل ما يقال.

تركنا الرجل واقفين لبعض الوقت مثلما تُركنا أمام الباب ساعتين كاملتين، المحامي الذي أحضرته نجفة كان صبي تاجرة مخدرات قديمة لا تجد فارقًا بينه وبين المجرمين، زد من الطين بلة أنه تخصص دعارة، لابس كرافتة حمرا وبدلة كاروهات وقميص سيمون وبنطلون موديل غريب وجزمة بُني وفي يده حقيبة بائسة ذات لون فوشيا، يبدو أنها كانت إحدى متعلقات زبونة من اللي عنده في المكتب.

أمرنا المسؤول بالجلوس فجلسنا.. وكانت أرجلي قد أصابها التنميل، لم يكن التحقيق قد فُتح بعد لكن الغريب أن رجل من فصيلة البغال دخل إلى الحجرة -وغالبًا بأمر من شخص ما- راح لاسع المحامي قلم على قفاه، قام المحامي منتفضًا من مجلسه ليأخذ الرجل بالحضن ويسلم عليه بحرارة، وسلامات يا صول شحاتة.. وازيك يا متر.. واضح إننا في قاع القاع..

- بطايقكم يا أساتذة..

أخرجت بطاقتي والغريب أن الدرويش كان معه بطاقة قال رجل التحقيق متعجبًا:

- حضرتك أستاذ جامعي ودكتور في كلية الطب؟!

أومأت برأسي أن نعم.. سألني محاولًا تخفيف المفاجأة تشرب إيه يا دكتور؟

شكرته وقلت:

- إن كان ولابد فكوب من الماء.. ثم نظر في بطاقة الدرويش وقال إيه ده إنت كمان؟! خريج هندسة.. قسم كيمياء نووية!!

كان الأمر صاعقة بالنسبة لي، الدرويش عالم كيمياء نووية، أومال إيه اللي عمل فيه كده؟؟!

أمر الرجل باتنين ليمون وفيهم تلج لي وللدرويش ولم يرى من الأساس وجود المحامي، وبعد قليل قال له مستهزءًا:

- اتفضل إنت يا أستاذ "دعارة" قصدي يا أستاذ عمارة مفيش قضية ولا حاجة، خرج الأستاذ "دعارة" إلى نجفة وأخبرها بقوته في القانون وبركاته في الدفاع -كما علمت فيما بعد- ليخرج صوت زغروتة نجفة يرج المكان والجدران.

قال مسؤول النيابة للدرويش:

إنت مش عارف إن فيه حظر وده معمول علشان نحافظ عليكم، يا سيدي الدكتور مش قلقان من الحظر لأن كارنيهه هيحميه لكن إنت مش دكتور..

سألته بسعادة بالغة: هي المشكلة حظر بس؟!!

فهم الرجل قصدي وأجابني مطمئنًا:

دا كلام تهويش بس يا دكتور يعني علشان الظابط يعيش اللحظة، عادي إن أي حد يقول تسقط كورونا.
التقطت أنفاسي وأنا أقول في نفسي "يا بركة دعاكي يا أمه، وروح يا ابني إلهي يوقفلك ولاد الحلال"
حضر الليمون ومعه شعور أنني مواطن ولست متهمًا حتى أُثبت عكس ذلك، تناولت الليمون وبرودة الثلج وهي تلمس شفتي وشنب الرغوة يشعرانني بالحرية التي فقدتها قرابة يوم كامل.
قال الدرويش:
احنا اتقبض علينا تمانية إلا عشرة، يعني القبض علينا غير قانوني، واتوجه لنا تهمة ضمنية اتقالت في اللاسلكي بإننا خلية إرهابية "خلية المعز لدين الله الفاطمي" هو ظلم الناس كده أمر عادي؟!
كان نفسي أقول كلام الدرويش لكن هنا العدل محل خلاف بلا اختلاف، لم أعد أظن الدرويش رجل قليل العلم فيما يخص علوم الدنيا كما علوم الآخرة.
قال رجل العدالة:
- إنت عارف الظروف اللي بتمر بيها البلد ودا طبعًا مش مقصود..
ضحك الدرويش وقال متهكمًا:
- هي البلد دي مش هتبطل تحيض!! عندها ظروف بقالها ألف سنة.. البلد دي لازم تطهر من الحيض بقى..
بدأت ملامح رجل العدل تتغير وتمتزج بالغضب لكن الدرويش فاجأه بسؤال هدم كل ما يدور في رأسه:
لما احنا مش متهمين بنتعامل كده ليه؟!

بلاش دي سيادتك.. ممكن تتخيل أن اللي حصل العكس
إن سيادتك اترميت في الحبس مع شوية مجرمين والصبح جالك واحد وقالك معلهش إنت عارف ظروف البلد.. ولا هي البلد مش بتحيض غير علينا احنا بس؟!
هل فكرت مرة في أن الظلم مفيش منه اعتذار؟!
إن الظلم مش ذنب فردي ينفع تتوب منه؟!
إنه ذنب له طرف تالت اسمه المظلوم؟!
إنت إزاي متخيل إني ممكن أفرح بكلامك ده!! صعب قوي أقرأ نُص المعادلة دون القفز إلى النتائج المترتبة عليها .. أنا شكلي درويش لكن بتاع كيمياء نووية، أنتم مش عارفين إن لكل فعل رد فعل؟!
إنت متخيل كل مظلوم هيعدي من هنا هيطلع وجواه إيه؟!
اللي هتكسروا كرامته مرة هنا، هتكسروا انتماؤه العمر كله لهنا، المسألة أكبر من البلد اللي عندها ظروف، الظروف دي لازم تنال الكل وإلا فهو الظلم يلبس جلباب العدالة..
إن الأمم التي لا تسوي بين أبنائها تصنع بينهم درجات متفاوتة من الكراهية والبغض والتنمر بل وانتظار الهزيمة أحيانًا..
إن الأمم التي تصنع من بعض أبنائها أسيادًا ومن باقي شعبها عبيدًا لأمم جديرة بالهزيمة..
إن العدل أساس الملك، ولا ملك بغير حقوق..
ولا حقوق بغير قانون، ولا قانون بغير نظام..
ولا نظام بغير علم، ولا علم بغير مساواة..
ولا مساواة بغير دين، ولا دين بغير إيمان..

ولا إيمان بغير تواضع، ولا تواضع بغير رضا..
ولا رضا إذا سكن القهر قلوب العباد..
يا سيدي إنك تحمل إثم كل رجل خائف مر من هنا، وكل رجل ترك حقه خوفًا أن يصل إلى هنا، وذنب كل بيت زار عائِله سلم المظالم..
يا سيدي إن كل ظلم يطال كل فرد في هذا الوطن لك نصيب منه؛ لأنك جزء من منظومة ترى أن العدل قد يتعطل لأن البلد حائض وعندها ظروف.
صوت الباب يطرق والأستاذ عمارة يدخل يستأذن الرجل أن يأخذنا، كان كلام الدرويش مزعجًا لضمير السلطة، بل إن ضمير السلطة الذي تم استدعاؤه صباحًا لم يكن موجودًا قبل كورونا.. إن ابنة رجل العدل بين يدي العدل الآن على جهاز التنفس الاصطناعي.
العدالة المؤقتة.. هزيمة مطلقة..
نجفة وتوحة على الباب تنتظران، أخذتني نجفة بالحضن ما الحكاية مولد وصاحبه غايب، وحمد الله على سلامتك يا أووستاذ ويخليك لينا، توحة قالت مادام الحكاية فيها أحضان.. اشمعنا أنا!!، احتضنتني في نفس الوقت مع نجفة وسلامات يا أووستاذ، وبصوت واطي مثل هذه البيئة التي نبتت فيها تمتمت: - "إلهي يتشك في قلبه الظابط اللي ظلمك".
وكلٌ يَدَّعِي وصلٌ بليلى وليلى لا تُقر لهم بذاك..
وخرجنا.. وكفاره..

[١٥]
في حمام التلات

خرجنا جميعًا من قسم الشرطة، أسئلة كثيرة تدور في عقلي لكن الأرق وآلام الظهر تغلب على خلفية الصورة، مِلت على الدرويش الذي ظننت أني أعرفه وسألته:

إنت مين يا سيدنا؟!

تبسم وقال:

إنسى إنك شفت البطاقة، سيبك من الورق وخليك في المضمون، ثم قال لنجفة:

- خدي مفتاح أوضتي وهاتي طقمين ليا وللدكتور، وحصلينا على حمام التلات واعطى الهدوم لأبو دنيا وفهميه..

حمام التلات ذلك الذي طالما سمعت عنه لكنني أبدًا لم أدخله.. البخار يغطي كل شيء ويحجب الرؤية، طلب منا الرجل الجالس على الباب خلع ملابسنا وأعطانا قطعة من قماش نستتر خلفها من ذنوبنا، كنت غير مرتاح للفكرة لكن التوق إلى التجربة أحيانًا يدفعك إلى طريق الجنون..

جلسنا في الماء الساخن وجاء رجل يشبه الحانوتي يسألنا عادة ولا تدليك؟!

قلت له:

- لا أنا مش عاوز أي حاجة.. هما شوية مية سخنين وكفاية يشيلوا هم الليلة التعيسة، ثم التفت إلى الدرويش أسأله بعد هذه التجربة الغريبة:

- إنت شايف الدنيا رايحة على فين؟!

رد الدرويش:

- يا صديقي إنه العدل الذي لا أشك فيه أبدًا، إن الأرض قد أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها.. الأرض تحت مقصلة التأديب، قلت له:

- لكن الأمر قد يطال الجميع.

قال: نعم.. وهل الجميع كانوا على صراط الله المستقيم

يا صديقي تعال نُقسم الأرض ثلاثًا.. مسلمين ومشركين وكفار..

أما المسلمين فإنه إسلام البطاقات، وأنهم أذل الأمم وأضعفها، هل تظن أن الإسلام يقبل هذا الخنوع؟!

هل تتخيل أن أمة نبيها محمد تتسول غذاءها ودواءها وسلاحها وحتى حريتها؟! هذه الأمة لم تقرأ يومًا واحدًا تاريخ نبيها العظيم، ولو قرأوا فعلى سبيل الحكاوي..

هذه الأمة لم تعرف أبدًا معنى وأنتم الأعلون..

هذه أمة غارقة في الإثم، جرب أن تغمض عقلك وانظر في شوارع المسلمين، أي إسلام سترى؟! وأي اختلاف يمكن أن يرفعها عن غيرها من الأمم؟!

إن الاختلاف بيننا وبين باقي الأمم أننا أدنى من تلك الأمم، قلت له:

إنه الناموس وتلك الأيام نداولها بين الناس.. قاطعني قائلًا:

إنه تداول الاستبدال لا تداول الحقوق.. يا صاحبي إننا نُستبدل..
صحت معترضًا:
لكن الصورة عند الجميع صارت مشوشة، وكل فكر صار محل شك، والناس معذورون أن يتوهوا خلف كل الرايات، الغرب الذي تراه فاسقًا متقدم جدًا، والشرق الذي يدعي الإيمان متخلف وفاجر.. الحِسبة صعبة.
قال من خلف ابتسامته:
بالعكس الحِسبة سهلة جدًا، وعندما يختلف عليك أمر تخيل سيدنا جميعًا النبي العظيم محمد -عليه الصلاة والسلام- تخيل أن ترامب يُملي عليه شروطه، تخيل أن أوربا تضع شروطها قبل ما تعطينا القمح.. ماذا كان سيفعل؟! هل كان سيقبل؟
أجبته أن ربما كان يقبل مثل صلح الحديبية مثلًا..
قال الدرويش:
أراك تخالنا مازلنا في العهد المكي عندما كنا مستضعفين، قلت له: أعتقد ذلك.
قال باستغراب واضح:
مليار ونص مسلم.. ونص بترول العالم تقريبًا، ومعظم غاز العالم، عشرون في المئة من علماء العالم على الأقل مسلمين.. كل هذا وترانا في المرحلة المكية؟!
في المرحلة المكية حُبس المسلمين في الشِعب ثلاث سنوات أكلهم فيها الجوع، وطَعِموا ورق الشجر ولم تنكسر لهم عزيمة ولا شوكة ولم يأخذوا بالرُخص.. المسألة أن هذه الأمة تركت مسؤولية تربيتها على عاتق أعدائها فرباها عدوها على ما يحب ويرضى..

ممكن تقولي المسلمين مديونين ليه؟! علشان القصور والأفلام والمسلسلات والكورة تخيل هذه الأمة وأن تلك هي اهتماماتها!!

لكل أُمة ثوابت بقاء ومؤشرات فناء، واعلم أن هذه أمة تركت ثوابتها وسلمت سلاحها لعدوها، وأصبح جهالها سادتها، وعلماؤها متسوليها، وأُهين فيها العلم ورفعت قيمة الجهل..

إن لكل أمة قيمة.. ولا قيمة بغير ثوابت

ولا ثوابت بغير هوية.. ولا هوية بغير كفاح

ولا كفاح بغير تضحية.. ولا تضحية بغير حلم

ولا حلم بغير أمل.. ولا أمل بغير هُدى

ولا هُدى بغير إيمان.. ولا إيمان بغير كتاب

ولا كتاب بغير تابعين.. ولا تابعين بغير إمام

ولا إمام بغير سلطان.. ولا سلطان بغير قوة

ولا قوة بغير عزيمة.. ولا عزيمة بغير عمل

ولا عمل بغير عطاء.. ولا عطاء بغير إنتاج

ولا إنتاج في كل هذه الأوطان..

إن الأمم التي تأكل بمالها من أرض غيرها أمة هزيلة، وإن الأمة التي تقاتل عدوها ولم تصنع سلاحها أمة مهزومة، وإن الأمة التي تُضحي بعلمائها أمة جاهلة..

إن كورونا ليس من الظالمين ببعيد، خليك فاكر إنه نازل ومعاه لستة بالأسماء، واعلم أن البلاء لا يترك الصالحين إن كانوا قلة، ولا يترك المُصلحين إن كانوا صامتين، إن العقاب سينال الكثيرين، واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة..

كان صوت نجفة يرن بالخارج، وها أنا ألبس كما يلبس الدرويش.. لقد أصبحنا درويشين الآن..

اللون الأخضر طالع عليك يهبل، والعِمة مظبوطة ولا كأنك شيخ، والسبحة ناطقة في ايدك، هكذا تكلمت نجفة، ثم صدح صوتها:

مدد يا شيخنا.. الله أكبر عليك من عين الكل وأولهم نجفة بنت حوا وآدم.

سألتها هو أبوك وأمك الحقيقين اسمهم إيه؟ فابتسمت بوجع لم يكن يبدو عليها أبدًا وقالت:

وحياة غلاوتك في قلبي أنا ما أعرف جيت الدنيا دي إزاي، أنا وعيت على الدنيا دي من غير أب ولا أم..

[١٦]
إن الإنسان لفي خسر

خرجنا من حمام التلات على هيئة الدراويش وكأننا خرجنا من فيلم قديم، قال لي الدرويش تعالى نعدي على العتبة نشتري شوية حاجات، كان أتوبيس من بتوع هيئة النقل العام معدي، ركبت أنا والدرويش ونزلنا إلى ميدان العتبة حيث الزحام لا حدود له والبشر لم يسمعوا عن الوباء..

قلت للدرويش:

صدقني احنا ماشيين بستر ربنا بعد اللي الناس بتعمله ده، قال الدرويش وقد اعتبرني درويشًا -أو قل اعتبرني صبي درويش- عيب عليك يا شيخنا تقول كده، نقي كلامك فأنت تتحدث عن العظيم، احنا ماشين بستره وفي ستره وتحت ستره مؤكد.. ٢٤ ×٧ وابتسم .. إنت فاكر لأنك طبيب إن الشفاء بإيدك!! لا الدوا هو اللي بتاعك لكن الشفاء له وحده.. أنتم وصانعي الدواء مجرد أسباب تحت يد القدرة..

على ناصية جامع السبع بنات وقفنا حيث رجل يبيع عرقسوس، قال له الدرويش اتنين ساقع بعد أن تبادل معي نظرة القبول، رفض الساقي أن يأخذ مالًا فلم يرفعها الدرويش إلى فمه وقال:

- نحن لا نقبل الصدقات، نحن من نسل الأطهار.. فهمت مقصده وناولت الرجل المال، شربنا العرقسوس رغم أنه يرفع ضغطي لكن سعادتي غلبت تأثيره..
مشينا.. وكان آذان العصر يصدح في الأرجاء.. ألا صلوا في بيوتكم.. ألا صلوا في رحالكم.. قال الدرويش:
مش قلت لك الكورونا لازم تنزل، الزحمة دي والعالم اللحمة دي وعادي، لكن الصلاة تبقى في الرِحال.. احنا نستاهل الطرد.
وقف الدرويش في الشارع وأقام الصلاة.. كان على الأرض جريدة عليها صور لمجموعة ضخمة من الفنانين متلاصقين بلا قيود.. لا طبية ولا شرعية، ومكتوب تحتها "جنود الفن تقاتل من أجل الوطن".
التفت الناس إلينا بكل استغراب، وزاد الطين بلة حين صرخ رجل وسط الحشود "الحقوا المجانين دول العدوى كده ممكن تملى البلد".
كنت أشعر أننا نصلي وحول الكعبة أصنامها، وأبو لهب وأبو جهل وعقبة بن أبي معيط، وقفنا نصلي والناس حولنا حلق حلق وكأننا نرتكب كبيرة من الكبائر على قارعة الطريق..
وقفت على يمين الدرويش على أمل أن يصنع الناس صفا.. صلاة الجماعة وحشاني.. صلى الدرويش ركعتين وفي التشهد الأوسط جاء أمناء الشرطة في حالة من الهلع ومنعونا بالقوة من إتمام الصلاة.
كنت في قمة الاستغراب من هذا الجنون الذي أطاح بعقول الناس، وقال أمين الشرطة بمنتهى الحزم:

- دي أوامر ولو كررتوها نهايتكم الحبس، دا مش هزار دي أوامر عليا.. نظر إليه الدرويش وقال:
- الأوامر الأعلى بتقول نصلي، وما دام الشارع يكتظ بالزحام - اشمعنى الجامع اللي يتقفل! كان الناس يستغربوننا بشدة، وكان على وجهي امتعاض لا حدود له، قال الدرويش للأمين:
- فين المشكلة؟؟!
قال الأمين ممنوع صلاة الجماعة.. ليسأله الدرويش:
يعني ينفع كل واحد يصلي لوحده؟!
تسمر عقل رجل الأمن فهو غير جاهز للرد، لكنه كررها "جماعة لا"..
فقال الدرويش:
خلاص صلي لوحدك وأنا أصلي لوحدي.
صلينا كل بمفرده والأمين يتعجلنا حتى ننتهي بسرعة فهو لا يعلم هل صلاة الفرد أصبحت جريمة كما صلاة الجماعة أم لا؟!
لكن الأدهى من ذلك أن جموع الناس لم تُصلِ لا جماعات ولا فرادى، ولم ننج من سخريتهم، كان الكلام قد مات على لساني فلم أنبس ببنت شفة..
دخلنا إلى السوق حيث زحام يوم الحشر، وحجم القمامة والذباب والحشرات الطائرة لا تبشر بخير، ومكتوب على كوبري معدني يشق الشارع "من لم يمت بالسيف مات بأوبح".
مررنا على رجل عجوز فاقد للمعالم نائم في وسط الشارع، مستتر من بقايا شمس النهار بسرب من الذباب يحميه من حر الشمس،

أطرافه الظاهرة مع وجهه يكسوها طبقة من طين وغبار وبعض من أكاسيد البشر حتى أن الحشرات لا تعرف لطبقة جلده الأصلية طريقًا، مال عليه الدرويش وقال له:

ادعيلنا يا مولانا وعطف عليه بقليل من المال..

جلس الرجل بهيئته الغريبة وقال:

سالمين يا معلمين وكفارة من الذنوب.. وحي الحساب جاي.. سألت الدرويش هل تعرفه؟

رد أن لا.. لكن القلوب بتتلاقى ولنا نصيب ناخد على إيده أجر ودعاء.

مشينا حتى خلف شارع الموسكي حيث رجل يصنع سندوتشات من أكباد كائنات غير معلومة الهوية، ويؤكد الشك سعر الرغيف أبو اتنين جنيه.. لكن رائحة الطعام تغني عن حقيقته وكم البهارات تقتل الطعم الحقيقي، وكبسولتين "انتينال" ضرورة لما سيحدث، ولابد يكون فيه دورة مياة لأن معدتي عايشة دور إنها بنت ذوات، جلست على حافة الكوبري وأنا اتصبب عرقًا وآلام معدتي تقتلني.. ومش زعلان..

سألت الدرويش: احنا جينا هنا ليه؟

قال: جايبك تعرف مصدر كورونا، مصدر الوباء.

قلت له: تقصد الزحام؟

قال: كلا وألف كلا.. إنها الذنوب هي التي تجلب العقاب، والوباء عقاب لا شك فيه، الناس فطرتها اتبدلت خلاص، الصلاة تحت وطأة السيف صارت أمرًا مستغربًا، وفطرتهم السوية كانت أضعف من خوفهم من السياط..

لا تستحق أمة الحياة إلا بمقومات..
ولا تقوم مقومات أمة إلا بعلماء..
ولا يفتن علماء أمة إلا بقلة إيمان..
ولا يقل الإيمان حتى يكون الرزق عند السلطان..
ولا يتسلط سلطان حتى يولي كل جبان..
ولا يتولى الجبناء إلا إذا انزوى العلم..
ولا ينزوي العلم إلا بقهر الرجال..
ولا يقهر الرجال حتى يضيع العدل..
ولا يضيع العدل حتى يتفاوت الناس..
ولا يتفاوت الناس حتى تعم الرُشى..
ولا تعم الرُشى حتى يغلب الفقر..
ولا يغلب الفقر حتى يغلب الجهل..
ولا يغلب الجهل إلا لحكم جبري..
ولا يكون حكمًا جبريًا إلا بظلم..
ولا يتمكن ظلم إلا بمعصية..
ولا تحل معصية إلا ببعد..
ولا يكون بعد إلا بهوى..
ولا يكون هوى إلا بدنيا..
ولا تكون دنيا إلا إذا غابت الآخرة..
ولا تغيب الآخرة إلا برفع الدين..
ولا يُرفع الدين حتى يُرفع رجاله..
ولا يُرفع رجاله حتى تغلق بيوته..

ولا تغلق بيوته إلا وتنزل الجائحة..
كان صوت آذان المغرب قد آن.. وألا صلوا في بيوتكم..
ألا صلوا في رحالكم.. نظرت إلى الدرويش وسألته:
ما معنى رحالكم؟
تبسم وقال ما كنا فيه منذ قليل، وما نحن فيه الآن من ترحال، إن الله ينادي علينا أن نصلي في رحالنا.. وها نحن الآن في الترحال..
ثم أقام صلاة المغرب في الشارع مرة أخرى.. مرتلًا
{والعصر إن الإنسان لفي خُسر}.

[١٧]
لا حظ اليوم

على سطح البيت الذي يسكنه الدرويش نجلس ثلاثتنا، أنا والدرويش ونجفة.
سطح بيت آيل للهزيمة وسط منطقة آيلة للهلاك، بيت قديم قدم أيام العِز والمُعز، أحبال غسيل عليها قطع من ثياب لم تعد قادرًا على تحديد لونها.
السطح به حجرتان، حجرة للدرويش والأخرى لنجفة.. من بعيد في طرف السطح حمام له باب لا يُسد؛ وإذا دخلته لابد وأن تسنده من الداخل..
ليل القاهرة جميل، والليلة القمر ما بعد البدر في السماء، طلبت عبر الهاتف ثلاث وجبات من محل مشهور رفض أن يأتينا حيث ننتظره، لكن مدير المطعم يعرفني جيدًا فوافق على مضض، نزلت إلى الشارع وأخذت الوجبات وصعدت على السلم المتهالك المُظلم بمصابيحه التي هزمها يأس الظلام.
المنزل مكون من أربعة طوابق، وأنا في طريقي للصعود ألتقي نجفة على السلم، تخبرني أنها قلقت عليّ عندما نزلت وحدي، تحمل مني الوجبات وهي تقترب باستهبال أعرفه جيدًا وأدعي أنني لا أراه،

صعدنا إلى السطح وجلسنا نتسامر، كنت سعيدًا في زي الدرويش، إنه يعطيني روحًا دافئة لا تموت أبدًا..

تناولت بعض من وجبتي وشربت المياة الغازية التي معها، كانت نجفة تحضر كوب شاي للدرويش، عادت لتجدني قد شبعت من لقيمات بسيطة فقالت بحنان:

-أنا هاكل الباقي منك يا أووستاذ وخلي العلبة بتاعتي لك تبقى تفطر بيها الصبح.

نظرت إليها بحنان لم تألفه مني وقلت لها:

تسلمي يا نوجة.. أنا شبعت فعلًا، كُلي إنتي وجبتك.

قالت: طب أشيل لك الباقي من علبتك؟ أجبتها أن لا.. فقد شبعت والحمد لله..

قالت يبقى سيبني أنا آكلها.. بدأت تأكل من وجبتي وعليها من علامات الرضى الكثير، ثم قالت هو الأكل طعمه حلو كده ليه؟ دا أكيد طعمه مسكر زي اللي داقه الأول، شغلتني تصرفاتها، كانت نجفة تتحول إلى حلمها أن تكون تلك الفتاة المهذبة، المتعلمة تعليم يليق بي، ومن بيت تشْرُف أنها أتت منه، كنت أقرأ في عينيها تساؤلات للأقدار..

هو ليه مش كلنا زي بعض؟

هو ليه الزمن قسي علينا وطلع مننا ناس في العلالي وناس في الواطي؟

قررت أن أخرج عن سؤالي المعتاد وسألت الدرويش:

- إيه رأيك في الحب؟ قال الدرويش:

- اعلم أن الحب هو باب الدخول إلى معية الله، وأن قلوب المحبين خالية من كل رخيص، قلوب المحبين في رقة أفئدة الطير.
فاعلم أن من أحب تاب..
ومن تاب لازم الأعتاب..
ومن لازم الأعتاب تعلم الرجاء..
ومن تعلم الرجاء ناله حظ من النقاء..
ومن ناله النقاء تخطفته الأنوار..
ومن دخل في حضرة الأنوار صار من الزوار..
ومن كان من الزوار أصبح من أهل الدار..
ومن أصبح من أهل الدار كان في زمرة الأخيار..
اعلم أن من ذاق الحب ذاب..
ومن ذاب ذُكر في الكتاب
ومن ذُكر في الكتاب صار من الأحباب..
ومن صار من الأحباب لا يذوق العذاب..
ومن نأى عنه العذاب تناولته العزيمة
ومن كان من أهل العزيمة أصبح من الزهاد
ومن أصبح من الزهاد كان من طائفة العباد
ومن كان من العباد صار من جند الوهاب
ومن صار من الجند كان من أهل الأسباب
حيث لا أسباب ولا أبواب ولا عتاب..
هنا مملكة الحب..
هنا يموت كل شعور غير الحب

هنا نرضى وننسى ونسعد ونتوب
هنا على باب الغفار تموت الذنوب
هنا الحب والعشق والمحبوب
هنا باب التوبة لكل دؤوب..
كنت أحاول جاهدًا أن أربط الكلمات ببعضها، ثم قلت للدرويش يا شيخنا أنا بكلمك عن الحب العادي بتاع البشر مش الكلام الصعب ده.. قال الدرويش:
هل علمت حبًا بغير تجربة؟
وهل عرفت علمًا بغير ما خطأ؟
وهل بلغ الناس ما بلغوا إلا وفي الحب قد ولغوا؟
إن الحب هو المفتاح إلى باب الفتاح، ومن لم يجرب حب الدنيا ما عرف لذة حب الآخرة..
إن الحب هو زيت السراج في الليالي الحالكات..
الحب هو الصوت الناعم في إذن رجل ينام في قفارٍ موحشة، ثم أردف قائلًا:
وهل أتى بك ها هنا إلا الحب!!
وهل سكن في الأرض درويشًا بغير الحب!!
وهل كُسرت قلوب العباد إلا بالحب!!
ثم ختم قائلًا:
من لم يدخل على الله بقلب سليم فلا حاجة لله به، وإن القلب موطن كل إحساس..
حب وبغض، ولا يجتمعان..

وإن القلب السليم هو القلب المليء بالحب
ألم تسمع مقولة الحبيب:
"أحبوا الله لما يغذوكم به وأحبوني بحب الله"
مر بخاطري تساؤل مفاجئ.. أين سأنام الليلة؟!
مؤكد ليس في حجرة نجفة، وليس من العدل أن أنام في حجرة الدرويش، الأفضل أن أُتم الليل مستيقظًا رغم أن عيوني قد غشيها النوم، كانت نجفة تحلم أن أبيت فى حجرتها لكنها تدرك استحالة هذا..
ظلت هذه الأفكار تعكر صفو لذتي بحديث الدرويش الممتع، وظللت أحارب سلطان النوم الذي أوشك أن يهزمني، لينقطع حبل أفكاري عند هذه النقطة، وأنعم ببعض الهدوء.
المفاجأة الكبرى أنني استيقظت في الصباح لأجد نفسي نائمًا على مرتبة على أرض حجرة نظيفة، بكل ملابسي وكأنني قد فقدت الوعي، أصابتني الحيرة وتساءلت أين أنا؟ لأدرك عندما فتحت الباب.. أنها حجرة نجفة..
أنا إيه اللي جابني هنا؟!

[١٨]
حرب بالوكالة

نور النهار من فوق هذا السطح له ملامح الولادة الطبيعية، الألم في انتظار الفرج، ومع أول صرخات الوليد يتلاشى كل شعور بالألم..
عندي صداع في شق رأسي الأيمن، ولا أشرب القهوة لأسباب تخص ضربات القلب، اقتربت من دورة المياة مجهولة الهوية وقلت "يا سااتر" سمعت صوت نجفة تقول:
ادخل متخافش..
وضحكة من العيار اللي ميصيبش بس يدوش، كانت تقف على السلم وتراني من خلفي وأنا قلق من دخول دورة المياة، دخلت وغسلت وجهي وخرجت، كانت قد أحضرت فوطة نظيفة بالية لونها مجهول كتاريخها، مسحت وجهي وسألتها عن ملابسي فأنا لست ذلك الدرويش الذي ألبس ثيابه، قالت وعلى وجهها سعادة مفرطة أنا لا اعرف لها سببًا:
- شق ريقك الأول بلقمة على ما قُسم جايبة شوية فول وطعمية ولا لحمة الحاتي.. صحيح هي حاجة مش مقامك يا أوستاااذ لكن الجود بالموجود.

كنت أريد أن اسألها أنا إيه اللي جابني أوضتك، لكنني خشيت من إجابات مزعجة فاتجهت إلى غرفة الدرويش وكانت نجفة تسير خلفي، قالت لتملأ قلبي بالشك:

- دا إنت طول الليل كنت بتخطرف يا أوستاااذ.. هي مين وهيبة دي اللي كنت بتناديها؟ التفت إليها قلقًا وقلت لها:

- دي أمي -الله يرحمها- قالت يا كبدي.. ألف رحمة ونور عليها.

أنا لن أسأل أحدًا حتى يأتيني الجواب.. هكذا حدثت نفسي وأنا أهرب من نظراتها.

الدرويش جالسًا على الأرض ومرتبة من خلفه حيث لا سرير ولا أي متاع آخر، بعض من كراتين ورقية بها ملابسه، بساطة تشبه الولادة والموت بلا مقدمات.

جلست بجواره فقال بسم الله، سميت الله وأخذت رغيفًا ناولتني إياه نجفة، أخذت قرصًا من الطعمية عليه بعض السمسم وأكلت بعض اللقيمات شارد الفِكر.

كان الدرويش يقرأ القلق الظاهر على ملامحي والصمت الرهيب في مواجهة نجفة وحالة التردد في السؤال، فقال الدرويش:

إنت إمبارح بعد الأكل نمت في مكانك، وسندتك نجفة ونيمتك في أوضتها، وراحت هي نامت في أوضتي، أنا نمت قدام باب الأوضة علشان آخد بالي منك لأنك كنت بتهلوس وإنت نايم..

أخذت نفسًا عميقًا وتبادلت مع نجفة نظرة الناجي من الهلاك، لتعُض هي على شفتها السفلى كمن تقول "يا مين يمكني منك وأنا أعلمك التوبة".

أستطيع الآن أن آخذ رغيف خبز آخر وأكمل إفطاري وأطلب من نجفة كوبًا من الشاي، وأناديها بنوجة دون انكسار أو انحسار.
كانت تريد أن تقول شيء ما لكنني لم أعطها الفرصة وقلت للدرويش تعالى نقعد في الشمس، خرجنا للسطح حيث لا شيء نجلس عليه، ذهبت نجفة وأحضرت من حجرتها كرسي خيزران له رجل مكسورة أسندته إلى الجدار وحذرتني بكلمات تحمل ما تحمل من معاني مستترة قائلة:
خلي بالك يا أوستاااذ مش كل مرة هتسلم الجرة..
جلس الدرويش على الأرض كما اعتاد وجلست معتذرًا على الكرسي وسألته قائلًا:
احنا رايحيين ولا جايين؟
قال بلغة العارفين احنا مين؟ واحنا ليه؟ احنا اللي إنت بتسأل عنهم محلك سر لا رايحين ولا جايين، مع إن العالم كله رايح واحنا المفروض نكون جايين.
ركزت مع كلمات الدرويش ثم أخذت رشفة مستمتعة من الشاي، سألتني بعدها نجفة عجبك شاينا يا أووووستاذ؟
نظرت إليها بلا قلق وعلى وجهي ابتسامة النقاء
وقلت لها:
تسلم إيدك يا نوجة إنتي متعمليش غير الحلو.

ثم التفت إلى الدرويش أحدثه -بينما هي كانت تسرح في ملكوت تحت ظلال أغصان الحلم السرمدي الذي لم يخطر على بالها يومًا ما- سيدي الدرويش أنا لا أفهم.

كان الصداع قد تلاشى، وملابس الدرويش لم تعد تزعجني، ونور الشمس وضيائها لوحة من متحف الزمان الخالي من الحروب والآثام، قال الدرويش موضحًا:

اعلم أن ما يدور بالمُلك بأمر صاحب المُلك، واعلم أن الدرس سيحضره الجميع.. الجميع دون أن يُستثنى أحد، وسيفهم كل حسب عطائه من الإيمان، منهم حمالون للماء، ومنهم زارعون بالماء، ومنهم معكرون للماء كلٌ حسب جعبته..

منهم أرض سوداء تأخذ الماء وتنبت الكلأ، ومنهم من يحفظ الماء فيستفيد به بنو البشر، ومنهم صخور صلداء لا حفظت ماءً ولا أنبتت كلأً..

طلبت منه المزيد من الشرح فأكمل:

- إن غاب عن الناس العلم وهو فرض شرعي فقد غابوا عن حجة الوباء وهو السبب الشرعي، إن الوباء محنة فيها منحة والعاقل من اتعظ، وفي المنحة من اعتمد على عقله وحده ذل، ومن اعتمد على ماله وحده قل، ومن اطمئن لصحته اعتل، ومن تعلم الدرس وأمن اطمأن فلا ذل، ولا ضل، ولا قل، ولا اعتل..

الواضح أن السكان تحت الخيمة الزرقاء جهلاء، رئيس وزراء الإنجليز رسب في الامتحان لأنه لما نجا شكر كل سكان الأرض ونسي رب الأرض والسماء، مكتوب في أوراق امتحان مثل هذا "متشافي راسب".

وهكذا ستكون الموجة الأولى.. ورقة أسئلة، امتحانات محددة، نتيجة ملخصها ناجحون وراسبون ولا علاقة للنتيجة تلك بالنتيجة الأخرى.
ناجون ومتهالكون.. سينجو كثير من الراسبون، وسيفنى جمع من الناجحون هذا على مستوى الأفراد.
أما على مستوى الأمم فهناك قراءة أخرى.. أمم ستتلاشى، وأمم ستقاوم، وأمم ستعلو ولو علاها التراب، ثم تكون المرحلة الثالثة "مرحلة الفلفصة"
الأمم التي سقطت من على رأس السلم ستقاتل بأسلحتها القديمة و التي لا قيمة لها الآن إلا كثير من الخراب.

تخيل أن الأقدار تتخذ قرارًا ما خطر على قلب بشر، كل هذه الترسانات العسكرية قد يموت كل أصحابها وعلماؤها القادرين عليها وتصبح هذه المقدرات العظيمة لا قيمة لها.
إن الفيروس قد أقام حربًا بالوكالة.. هم الذين اخترعوا هذه الفكرة "الحرب بالوكالة"، نعم إن الفيروس يحارب بالوكالة عن كل المظلومين، وعن كل الفقراء، وعن كل المستهدفين.
إن الفيروس يعلم طريقه جيدًا، إنه يحارب دولًا ظالمة ما لبثت أن استقرت حياتها بعد ظلم طويل، ويأبى القدر أن يُحاسب المشاركين فحسب، إنها جرائم تفوق الخمر وبائعها وصانعها وحاضر بيعها وساقيها وشاربها وجالس مجلسها بل وناظرها أيضًا..

إن الظلم سبب تسمية الخمر بأم الكبائر فهي تُذهب العقل وترتبط بالمظالم، فما بالك والظلم يُقترف بغير ذهاب عقل، إنه ظلم مزدوج لا اعتذار منه..

إننا في المرحلة الأولى من النيزك الذي كنا عليه منذ عام أنا وأنت، إن النيزك لم يحمل دمارًا بقوة الارتطام لكنه يحمل عذابًا بقوة الانفصام.

قال لهم موسى:

"لا تفتروا على الله كذبًا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى"

أول الطريق الجهل

فإن كان الجهل كان الشرود

وإن كان الشرود كان البعد

وإن كان البعد كان لكل شيء تفسير

فإن وجدت التفاسير غالبت الأسباب

وإن غالبت الأسباب غاب المسبب

وإن غاب المسبب غلب علم الجهل

فإن غلب علم الجهل انزوى الإيمان

وإن انزوى الإيمان رفعت المعرفة

وإن رفعت المعرفة جفت المياة

فإن جفت المياة ماتت الزروع

وإن ماتت الزروع جفت الضروع

وإن جفت الضروع ساد الجوع

فإن ساد الجوع غلب التذمر

وإن غلب التذمر ضاع الصبر
وإن ضاع الصبر تأخر النصر
فإن تأخر النصر تمايز الناس
وإن تمايز الناس فمنهم شقي وسعيد
فأما الذين سعدوا ففي الجنة هم فيها خالدون
وأما الذين شقوا ففي النار هم خالدين فيها ما دامت السموات والأرض..
الامتحان أصعب من بساطة الرؤية.
كانت نجفة تصنع كوبًا آخر من الشاي وضعته أمامي وسألتني:
ارتحت في النوم؟!
لم تنتظر مني إجابة عن سؤالها وأكملت:
وغلاوتك عندي الملاية دي جديدة كنت حالفة لأفرشها يوم جوازي لكن أهي مطلعتش لحد غريب..
بس وحياة النبي ما ينام عليها حد بعدك، دي هتبقى الهدية اللي فيها ريحة الغالي..

[١٩]
الغربة

اليوم الأول من الشهر الكريم رمضان الخير، الساعة السادسة إلا الربع بتوقيت القاهرة، الجو مليء بغبار من أتربة مجهولة.. المكان أمام الباب الرئيسي لمسجد الحُسين..

الدرويش جالس وحوله من حوله من الانس والجن والقطط والكلاب الضالة وقليل من زخرف الحياة وقطرات من ألم غير مصفى، ورائحة شوك وشوق ودموع في عيون أذبلتها الآلام والأيام وليالي الغربة، قليل من الخبز وجبن قريش وقطع من الخيار والطماطم مفروش على أوراق جرائد خالية من العلم والصدق والمنهجية والحقيقة..

الدرويش زائغ العينين مكسور من داخله وصامت على غير عادته، على وجهه عبوس لم أعتده منه، ألقيت عليه السلام فرد بفتور وصمت.

اعتدت ألا أبدأ بحوار حيثما يكون الألم، أخرج الدرويش من جيبه راديو من الحجم المحمول، وظل يقلب في قنواته بحثًا عما لا أعرفه، سألته عما يبحث قال والوجع يسيل من حوله يملأ الطرقات:

منهم لله حتى صوت الشيخ رفعت منعوه، حتى الشعراوي منعوه، مفيش قرآن قبل الأذان، ومفيش صلاة بعد الأذان، مفيش تراويح، مفيش رمضان.. قتلوا رمضان..

كنت أشعر بنفس ما يشعر به الدرويش فكان الصمت إجابتي، رمضان في سجون الظالمين، والسجن قد اتسع لينال الجميع يقول الدرويش:

إن أشر السجون ذلك الذي لا يُكتب على بابه سجن، ولا تستطيع أن تغادره.. إنه سجن التاريخ، وسجن الجغرافيا، إنه سجن العقيدة، وسجن الإيمان، هكذا يموت السجين وهو حر..

كان صوت آذان المغرب يعلوا على استحياء ألا صلوا في بيوتكم.. ألا صلوا في رحالكم.. الدرويش يقف على الباب يصرخ:

افتحوا الأبواب دا مش بيتكم.. دا بيت ربنا.

ثم هو يرفع يديه ونظره إلى السماء ينادي بألم:

-احنا على بابك.. افتح يا كريم..

إلى من تكلنا!! أإلى هؤلاء وهؤلاء!!

ناولت الدرويش بعض الماء فقال اللهم إنني لا أعرف ما أقول، قلت له قل "اللهم لك صُمنا وعلى رزقك افطرنا" قال الدرويش دامعًا:

-وهل هكذا صُمنا؟! هل تسمي هذا الجوع والعطش صيامًا! ما هكذا يكون الصيام..

تناول الماء وجلس صامتًا، سألته ما بك يا شيخنا؟

قال بوجع شديد:

رمضان محبوس واحنا لازم نخرجه، قلت له وقد أصابني القلق عليه:

-محبوس فين ونطلعه إزاي؟
فقال ما هكذا كان ولا يكون رمضان.. رمضان محبوس في ظل الإله الجديد..
قلت له: أي إله جديد تقصد؟
قال "القانون" أخبرته أنني لا أفهم.
قال: يا سيدي إن القانون كلام بشري وما يحق له أن يتخطى كلام سماوي، وإنما اخترع القانون ليعبده الناس من دون الله.. تساءلت وعلى وجهي علامات الاستنكار كيف يكون هذا؟
قال: ما يمنع الناس أن يصلوا في بيت الله؟ أليس القانون؟
-لا ليس القانون إنما الرغبة فى الحفاظ على حياتهم
من الوباء، فقال غاضبًا:
- هو الوباء في الجامع بس؟ إنما المترو والمواصلات والأسواق عادي؟ طيب إيه علاقة ده بمنع القرآن؟!فلم أجد ردًا يقنعني.. فأتم حديثه..
- القرآن ممنوع يُقرأ بأمر القانون، ومفيش تراويح بأمر القانون، احنا في الطريق إلى عبادة القانون.
- لكن القانون ضروري لضبط حياة الناس، رد الدرويش:
- هل تعلم تعريف القانون؟ إنه الحد الأدنى من الضمير الإنساني، ورغم هذا فإن القانون لا يُعبد من دون الله، إن القانون الأصلي هو قانون الله وما دونه شِرك..
كل ما يخالف قانون الله هو على أبواب الكفر أو الظلم أو الفسوق.

على اليمين في شارع جانبي مكتبة دخلها الدرويش وأحضر منها قلم أسود ولوحة ورقية كتب عليها..
"إنّا لله وإنّا إليه راجعون".

[٢٠]
لحظة على الهاتف مع الدرويش
النوايا التي لم تسند الزير

هناك فارق ضخم بين ما تنوي وما تفعل، أنا لا تهمني نواياك لأنني ببساطة لا أراها ولا يحق لي أن أتوقعها، أنا يا صديقي أرى أفعالك فإن كانت خيرًا رأيتها خيرًا، وإن كانت غير ذلك فربما أُحسن الظن مرة، لكنني لن أحسن الظن كل مرة..

يا صديقي لنا الظاهر وعلى الله الباطن ولأننا بشر فإننا سنرى الأفعال من سير أحداثها، فلكل فعل ما يسبقه وما يلحقه وكل أمر مربوط بما حوله ونزعه من سياقه ظلم للحدث.

لا تكلمني عن محبتك لي فإنه لا يبكي على الحب إلا النساء .. هكذا قال لي الدرويش حينما قلت له إن غيابي عنه لم يكن إلا لمصلحة رأيتها بينما هو كان يفتقدني ويشعر بتقصيري ناحيته.

أسبوع تقريبًا لم ألتق بالدرويش لكنني أفتقدته كثيرًا، مكالمته بالأمس أحرجتني جدًا لذا فقد أسرعت بالذهاب إليه الآن، أنهيت عملي، وفي طريقي إليه سمعت أذان المغرب في الراديو، كان معي علبة من العصير شربتها وأتبعتها ببعض الماء.

كان الصداع في رأسي لا ينقطع وكان أول ما استغربته خلو الشارع وغياب الناس الذين يوزعون الماء والتمر والعصير قبيل أذان المغرب، هؤلاء الذين يقفون أمام السيارة ليقسموا عليك أن تنزل لتتناول الإفطار..
شيء ما يكسر أجواء رمضان، شيء ما تعودت أن أراه كل عام لكنه اختفى.
حين وصلت إلى الحسين شعرت بغصة تعتصر قلبي فلا شيء كائن مثلما كان، اختفى كل شيء اعتدته.. صوت الضجيج على الموائد التي كانت تُغلق الطرقات، أصوات العاملين في تلبيه الطلبات، وهذا الصوت الصادح يطلب شوربة لسان مع واحد كوارع وفته لباني متلهفًا، ها هنا قد سقطت التجربة الحياتية.

على حافة الإعصار كل شيء ينتظر الفناء، وفي قلب الإعصار تفقد كل شيء، حتى تلتقي بنار الإعصار حينها تكتشف أن الإعصار كان نعيمًا لم تدرك ساعتها قيمته.
الدرويش جالس عند الدهان أمامه طعام بسيط وحوله من القطط سبع أو أكثر، يأكل لقمة ويوزع عليهن لقيمات، جلست معه وطلبت شوربة لسان عصفور تساعدني أحيانًا في التخلص من الصداع، وأشرت إلى النادل أن يقدم طعامًا آخر للدرويش.
كنت أجلس أمامه وأشعر أنه مربوطًا بعالم آخر، لم يبق بين هذا الدرويش والجنون إلا شهادة من العباسية، إنه في عُرف هؤلاء من المجانين، لكنه في الحقيقة كان من الموصولين ..
تحسن الصداع قليلًا فقلت له إحكِ يا صديقي، قال:

تخيل أننا نقطة بعيدة جدًا في هذا المكان.. تلك النقطة صغيرة جدًا في تلك الأرض التي هي صغيرة جدًا في مجموعتنا الشمسية، التي هي بدورها صغيرة جدًا في مجرة درب التبانة، التي هي لا شيء في العالم المُدرك، الذي هو حلقة في صحراء إذا ما قُورنت بالعرش، الذي هو لا شيء إذا ما قُورن بالكرسي، الذي هو لا شيء إذا ما قُورن بكن فيكون..

يا صاحبي نحن لا شيء وكل شيء، نحن حلقة صغيرة في سلسلة عظيمة تدور في فلكنا نحن.. نحن اللاشيء الذي أخذ قيمة كل شيء.

هل تخيلت يومًا عظمة خلق الله ومخلوقاته!!

هل تخيلت يومًا أنك وأنت لا شيء سيد كل شيء!!

إنه الفهم الذي لا يستوعبه العقلاء.. نعم عقلاء الدنيا

مجانين الآخرة والعكس، تساءلت:

- وما علاقة العقل والجنون بالمُلك والملكوت؟!

- إن الذين غلبهم عقل الدنيا عبدوه، وأما الذين غلبهم فهم التجربة فقد غابت عقولهم.

- وكيف عبدوا العقل؟

- انظر إلى كل صاحب عقل لم يهذب الإيمان فهمه، انظر إلى تفاسيرهم، لكل شيء إنهم دائمًا ما ينتهون عند ما يدركون، إن الله ليس أبدًا سقف فهمهم ولا حبهم ولا إدراكهم..

إن كل صغير وكبير ينتهي عند قدر الله وحكمته، كل شيء لابد وأن يُرد إلى صاحبه، وصاحب كل شيء "صانعه أو بائعه أو شاريه" والله فوق كل هذا، إن ترابط المخلوقات.. كل المخلوقات من حي وجماد،

من أرضي وسماوي، من إنسي وجني وملائكي، إنها قولًا واحدًا سيمفونية من أعظم ما عُزف في الملكوت..

يا صاحبي..

إذا كان الله.. فلا شيء سواه حينذاك

وإذا لا شيء حينذاك، فأنت من زمرة المَلائك والمُلاك

وإذا كنت منهم فكل شيء بقدر معلوم

وإذا كل شيء بقدر، فكل قدر بحمد مقدور

وإذا كل حمد مقدور، فكل شكر بزيادة

وإذا كل شكر بزيادة، فأنت من المقربين

وإذا أنت من المقربين فأنت من أهل النعيم

وإذا كنت من أهل النعيم، فلا يأس ولا بؤس ولا شقاء

وإذا لم تكن من أهل الشقاء

فأنت تعرف جيدًا أهل الشقاء لا أهل البلاء

فإن أهل الشقاء مشغولون في شقاء عقلهم

وإن أهل البلاء منعمون في فهم قدرهم

واعلم أن من عاش تحت ظل عقله

غلبه ضيق جهله ولو علا واستعلى

ومن عاش تحت ظل عفوه استغنى بعقله عن عقله،

وبقلبه عن فهمه، وبرزقه عمن سواه

واعلم أن أعظم الناس من استغنى بالله عن كل عطايا الله، هنا يسكن كل شيء ويستوي التراب والتِبر، ويبقى فيك من الملائكة حب العبادة وحسن الطاعة وعلو الهمة ودنو المكانة وما فيهم دني.

من عرف الله عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش
ومن رضي بالعطاء كان من أهل الرجاء
ومن كان من أهل الرجاء كان من المقربين الشهداء
ومن كان من الشهداء كان عند الله من الأحياء
ومن كان من الأحياء كان جسده في الأرض
وقلبه في السماء..
ليقطع الكلمات صوتًا يقول:
الحساب يا أووستاذ، ولا تحب أدفع أنا ونبقى نتحاسب وما بين الخيرين حساب!!
إنها نجفة.. لقد جلست بجواري ولم أشعر بقدومها، ووقف النادل يطلب الحساب ولم أسمعه، لقد صحبتني كلمات الدرويش إلى عالم الملكوت حقًا..
ناولت النادل ما طلب وأنا أحدث نفسي..
الله يلعن إبليسك يا نجفة..
إنتي إيه اللي جابك دلوقتي؟!

[٢١]
التعميرة والتخريبة

الواحدة والنصف فجرًا بتوقيت القاهرة، اللجان في كل مكان، والإجابة الثابتة لكل الاستجوابات:
- أنا دكتور تستدعيني أحدى المستشفيات لمصاب في حادث..
أصل إلى المستشفى فيخبرني النائب إن العيان مشي لأن أهله قالوا مفيش معانا فلوس، عملنا له الإسعافات الأولية ومشي.
ليل القاهرة خالد خلود الموت العظيم، هواء الليل بعد دخول اليوم الجديد هواء نقي خالٍ من الذنوب ومن عادم السيارات، توجهت إلى الدرويش صديقي الذي لا ينام، وجدته مازال في الشارع جالسًا يسبح الله ويستغفره، تهلل وجهه كثيرًا حين رآني..
نجفة تجلس قريبًا منه كل شيء هاديء في هذا الوقت إلا قلب تلك النجفة ونظراتها التي تفيض بكل شيء من أقصى يمين الصواب حتى أقصى يسار المقصلة، جلست عن يساره فأصبحت عن يمينها.
في حالات مزاجي الجيد، وعندما أناديها "نوجة" تفقد كل ما بقى في قاع عقلها من صواب دفنته في سلة مهملات الفضيلة المتروكة تحت عالم الخطأ الأزلي السرمدي الوجودي النفطي اللاشعوري، وقطع من أشياء أُخر..

حدثت الدرويش "واحشني يا شيخنا" لترد هي لا الدرويش "عقبال متقولهالي مرة أموت بعدها بين إيديك وتعملي تنفس صناعي، ثم قالت بلؤم الساقطات:
هي قبلة الحياة دي لازم الواحدة تموت علشان تاخدها؟
قال الدرويش:
واحشني يا غالي متبقاش تغيب عني كتير، أنا رِجل هنا ورِجل هناك، وإنت اللي لازم تاخد الولاية من بعدي، نظرت إلى الدرويش مستغربًا وقلت له:
-ربنا يعطيك العمر والصحة، بس ولاية إيه اللي آخدها من بعدك؟! أنا مالي ومال الطريق ده؟

قال فى هدوء:
-ابن الطريق ملوش اختيار.. الطريق هو اللي بيختار ناسه، وإنت من ولاد الطريق.. ضحكت بصوتٍ عالٍ على غير عادتي وقلت له:
والله فكرتك هتقولي إنت من ولاد الليل، ثم مِلت عليه أُكلمه عن نفسي وأنني لا أصلح لمثل هذا الطريق..
-أنا راجل بتاع صناعة الدنيا، أنا جراح تجميل يعني بشتغل علشان الناس تحب الحياة مش تزهد فيها.. يا سيدى الدرويش أصدقائي الذين لا يعرفونك يطلقون على اسم "صانع الجميلات" وأحيانًا "صانع السعادة".. أنا آخر من يصلح أن يكون ابن من أبناء الطريق.

فقال الدرويش:
-إنت متنفعش ابن من أبناء الطريق، إنت ستكون الولي وشيخ الطريقة.
ضحكت بصوت عالٍ جدًا هذه المرة حد القهقهة، كانت نجفة قد وصلت ومعها أكوابًا من شاي لي وللدرويش ولها، قالت بصوت يسمعه الجميع:
- يخرب بيت دي ضحكة هي الوالدة إتوحمت على إيه؟
نظرت لها وأنا أحدث الدرويش:
- أديك شايف يا سيدنا حالنا.. رجلينا في الوحل، فقال بهدوء:
- بس قلبنا مش في الوحل.. ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال:
اعلم أن كل ساق عبد في وحل المعصية هي قدم في طريق الخروج، واعلم أن كل قلب لم يدنسه الوحل قلب مخموم..
ليست القضية أين قدميك؟ لكن الأهم أين قلبك؟
إن الأرض مذ خلقت موحلة، وإن الوحل يصيب كلٌ بقدر مقدور فمنهم من يصل إلى كعبيه، ومنهم إلى ركبتيه، ومنهم إلى حقويه، ومنهم إلى كتفيه، ومنهم من يلجمة الوحل إلجامًا..
اعلم أيها المختار -الدرويش يحدثني- أن الطريق موحل وأن فوق الوحل ماء، وأن الماء يغسل الوحل، وأن من عرف سار ومن سار نال المقام، ومن نال المقام كُتب من السعداء.

كنت أريد أن ان أسأله هو متعاطي إيه؟ كنت مبتسمًا مما يقول، بل أراه هرطيقًا بلغة أهل الصليب، أي طريق وأي ولاية تلك التي يتحدث عندها؟!

تغيرت ملامحي وقلت له:
-سامحني يا صديقي إنت عايش في عالمك الافتراضي، يا شيخنا بقولك إحنا في الوحل وأهل الطريق كانوا في النور .
تغير لون عيني الدرويش وأظن أن بؤبؤ عينيه صار طوليًا لا دائريًا، كان ما تبقى من شعر لحيته أسودًا يتحول إلى البياض وأنا أنظر إليه، تجاعيد وجهه كانت تزداد حدة ووضوحًا، وشرخ متأصل ظهر في بحة صوته، ورعشة كفه اليمنى اختفت وشهق شهقة لم أعلم متى تنتهي، ثم رفع حاجة الأيسر الخال من أي شعرة غير بيضاء، لون عينيه الأزرق كان يشع نورًا، وسِنة في فكة العلوي كانت من الفضة، أسند رأسه إلى طرف عصاه وقال:
إن لله عبادًا يبيتون في ليل المعصية فتشرق عليهم شمس الطاعة يخرجون من ذنوبهم كما تخرج الحيات من جلودها، ينامون في وحل المعاصي ويستيقظون في ماء التوبة.. أولئك الذين خلت قلوبهم من كل غلٍ وحسدٍ وبغض..
أولئك القوم الذين باتوا وليس في قلوبهم للعباد أذى
أولئك التائهون وسط العباد المخلصون لله وهم زهاد
إن غابوا لم يفتقدهم أحد، وإن حضروا لن يبصرهم أحد
لا تُفتح لهم أبواب العباد ولا ترفع لرؤيتهم الإبصار
ضعاف في المُلك، ملوك عند صاحب الملكوت..
قوم إذا ظهرت آباطهم قضيت طلباتهم، وإن رُفعت حواجبهم قضيت حوائجهم، عباد لو وقفوا على باب الله لم يسبقهم أحد، وإن نادوا على الله لم يرد لهم طلب، أولئك أهل العمران في المدائن الخربة..

كانت نجفة من خلفي في عالمها الآخر تسألني هامسةً في أذني تحب تتسحر يا أوستاااذ؟
أنا كده اتلخبطت..
إيه اللي جاب البحر جنب القلعة!!

[٢٢]

سألت الدرويش عبر الهاتف.. هي الناس أخدت درس من كورونا؟
ليرد بمنتهى الهدوء:
-لا.. الكورونا هو لحظة الإمتحان وليس عام من التدريس، ولحظة الإمتحان هي لحظة تقييم لا تعليم، والذين كانوا من المجتهدين سينجحون، والذين كانوا من المستهترين سيرسبون.
كورونا مش جاي علشان يعلم الناس ولا علشان يحولهم إلى صالحين، كورونا جاي علشان يمضي على النتيجة -واللي ذاكر ذاكر يا قلبي- بكاء ليلة الإمتحان لن يرفع درجات النتيجة غدًا، ولن يجعلك من النخبة بعد ساعات..
كورونا هو الإشهار.. الحدوتة بدأها الجميع منذ ألف عام، من الآخر كورونا ليس المُخلص، لكنه صاحب التوقيع على نتيجة الامتحان..
لن يتغير أحد في جائحة إنما تستكشف تركيبة كل منا، خياركم قبل كورونا هم خياركم بعدها، وشراركم قبل كورونا هم شراركم أثناءها وبعدها، ولا نضَّر الله وجه الفاسدين.

[٢٣]
الذل إكسير الحياة

كان مزاجي معتلًا على غير سبب أقف عليه، وكانت التاسعة مساءًا أمام مسجد سيدنا الحُسين، أنا و الدرويش و نجفة وتوحة وبعض من القطط والكلاب الضالة، وليل لم يُرخ علينا سدوله بأنواع من الهموم والقهر والذل والبؤس وبعض الحشرات الزاحفة والسحالي وقطرات بول لمرضى التردد الإنساني، وأكاسيد بشرية من سلالات الهوان والضعف.

كل شيء في سماء الدنيا الهابط حتى تلمسه الأيد المنزوعة القدرة على العمل أو المقاومة أو أي شيء غير تناول الطعام.

يوم وكأنه خلا من التسابيح، نور الليل الخافت ومن نفحات نور القمر المختبئة خلف تلال الوجع المنتشر في الحارات التي تستمد قدراتها الكلامية أمام الضعفاء والبسطاء بينما تهوي تحت أرجل السلطان، ذلك الذي مات على الكرسي منذ ألف ألف عام، ألا إنهم مكتوب على جيناتهم "إن الذل إكسير الحياة".

جلست إلى الدرويش كان وجهه عابسًا على غير العادة نظر إلى وقال:

-أحسن الله عزاءك في سحر، أكملت نجفة بقولها تعيش وتفتكر يا أووستاذ، والنبي عُمر ما راجل حزن على مراته كده، دا بيبقى في العزا وبيحسس على إيدين الستات اللي جايه تعزي علشان يختار منهم

واحدة.. دا إنت طلعت جبل.. نظرت إليها ورددت متمتمًا "البقاء لله يا نجفة".

سألت الدرويش مستفهمًا:

-مالك؟! إنت مش على طبعك، شايفك عصبي ومخنوق رد مفسرًا:

-إن أول ما ينظر إليه الله قلوب العباد لا أعمالهم، وإن الله لا يقبل في قلب عبده شريكًا معه، قلت له حدثني.. قال:

-إن الله لا يقبل الظلم مهما علا أو دنا، وإن الظلم ألعن من الخمر في شركائه، فإن الظلم أينما وقع في الأرض نظر الله في قلوب عباده فأيما قلب رضي بظلم وإن لم يحَضره ولم يفعله نال من الوزر مثل فاعله لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا.. وأيما عبد أنكر بقلبه مظلمة وإن حضرها غير قادر على دفعها إلا كتب الله له أجر

الناهين عن المنكر.. قلت له:

-وهل للضعفاء من يد في دفع أو رفع، إنهم بلغة الناس "عبد المأمور"، الناس غلابة يا مولانا والحاجة تكسر أنوف العباد والخوف والذل والقهر..

نظر إلى الدرويش نظرة ازدراء وقال:

-هكذا صنع الشيطان عبيده وصنع فوق عبيده سلطان من عبيده هو أشر عبيده.. ما هكذا يكون الإيمان ولا هكذا تكون العبودية، إسمع يا هذا.. إن الأصل ها هنا الابتلاء، وأصل الابتلاء الإيمان، وأصل الإيمان التوحيد، وأصل التوحيد معرفة الله ومعرفة الله تعني أنه الواحد الأحد وأنه لا عبودية لغيره.

سألته وقد حيرني رد فعله:

- وماذا يصنع الضعفاء في مواجهة الظلم والقوة والقهر؟

- يختاروا الله وإن كان الثمن الموت، فإن موت على طاعة خير من حياة على معصية، ثم نظر إليَّ وقال:
- ألم تقرأ عن فرعون وهامان وجنودهما!
إن أهل الإيمان الكاذب عندما كانوا تحت أرجل السلطان كانوا أحط ألف مرة من العاهرات؛ لأنهم باسم الله سلطوا عباد الله على عباد الله، إنهم كذبوا باسم الله ورسله، هؤلاء قلوبهم قلوب العاهرات وألسنتهم ألسنة الفقهاء، هؤلاء أول من عَلَمَ الناس الشرك وهم يحدثونهم عن التوحيد.. ثم نظر إليّ قائلًا:
-ماذا تظن الله يريد من عباده، وماذا يريد لعباده؟!
قلت يريد من عباده أن يعبدوه.. قاطعني مكملًا..
يعبدوه وحده.. ولكي يعبدوه وحده لا بد لهم أن يكونوا أحرارًا..
إن الحرية أصل كل إيمان حي، وإن الحرية أول طريق الإيمان، والحرية ليست في المكان والزمان لكنها في القلوب، فكم من رجل في الأغلالِ حرًا! وكم من ملك على كرسيه عبدًا!
إن الحرية أول الطريق إلى الله وبغير حرية فأنت عبد لغير الله.. وعلى ذلك فكل شيخ لم يعلم تلاميذه الحرية هو شيخ آثم، وإمام ضال، ومعلم الناس الشرك في حلقة التوحيد ..
ألم تنظر إلى الرعيل الأول! لقد كانوا أضعف أهل الأرض وأفقرهم وأقلهم سلطانًا، لكنهم نالوا حريتهم بعد أن نطقوا شهادتي الإيمان، ثم باعوا أنفسهم في سبيل قضيتهم الأم.. الحرية.
إن الحرية لا تكتمل حتى تبيع نفسك كاملًا لله، فإن أعظم أبواب الحرية هو باب الذل على باب العزيز، اعلم أن أهل الفسق من أهل الإيمان ليسوا أفضل من أهل الفساد كلاهما عبد للبقاء، وأن عبودية

البقاء شرك وعبودية الخوف من غير الله شرك، وعبودية الفقر شرك، وعبودية المواءمة شرك..
تخيل لو أن هؤلاء الفساق من أهل الإيمان ربي جيلًا على مبادئ المهاجرين، تخيل أنهم ربوا عمارًا وخبابًا وسمية، تخيل أن فيهم أبا بكر وعمر وعثمان وعلي، تخيل أن شيخهم حمزة..
إن صناعة جيل يؤمن بالله حق الإيمان شيء آخر، ومثل هذا الجيل يحق له النصر، أما هؤلاء الذين علمونا الخضوع تحت كل ظلم إنما علمونا الشرك، فإن ألف سيف لا تقطع ألف ألف رقبة.. تبًا لهم من مرتزقة وإن علوا المنابر.. وإن قرأوا الكتاب.. إنما هؤلاء هم أحبار بني إسماعيل، الموت لكل من علم المؤمن الخضوع ولو كان كَذَبهم بقال الله وقال الرسول.
كانت نجفة تهز رأسها غير مدركة لكلمة واحدة لكنها قالت:
-منهم لله البعدا والله ما عارفة أقولك إيه يا أووستاذ..
هي الدكتورة سحر الله يرحمها ماتت إزاي؟!

[٢٤]
إنت بتأذن في مالطة

في الموجة الجاية اللي عايز يعيش ميجيش، سينتصر الذين يحبون الموت وسيموت الذين يعشقون الحياة.
الدرس الأول طلع جيل عنده مناعة.. والدرس التاني طلع جيل عنده مقاومة.. اللي يخاف هنعرفه من ضربات قلبه وصوت نَفسُه وحدقة عينيه، واللي مناعته ضعيفة يقعد في بيته الحَجْر للجدعان، والسجن للشجعان، والموت لكل خايف أو جبان.
كلمات لم أفهمها استقبلني بها الدرويش..
الرابعة عصرًا في ساحة مولانا الحسين، الجو يوحي بتغيرات لم يفهمها أحد، نجفة بلباسها الشرعي وقت الصيام وشال رأسها المليء بالترتر، وعيناها في كُحل يوم الزينة وإن لم يُحشر الناس ضحى.
صوت جلجلة وجلبة وأزيز ليس بعزيز، الإسعاف وسيارات شرطة وجنود أمن من النوع الغليظ وفرجة ومولد وناس رايحة وناس جاية.. سألت الدرويش:
-خير يا سيدنا؟
قال: يا سيدى حالة كورونا.
- والناس ملمومة على إيه؟

- قال بيتفرجوا على الفيروس، شعب ملموس أو ممسوس أو ملحوس..
الناس حول الإسعاف حلق حلق والمريض ينزل شبه غائب عن الوعي، والذين قَبْلُوه من الحضور عشرات ممن سيحملون الوباء، غادر الإسعاف المكان فبدأ الكلام وتغير التعاطف بعد دقائق إلى سُباب، وأشار البعض بحرق منزل المصاب خشية أن يصاب العباد.
واحدة طلعت إزازة خل وقالت "اغسلوا وشكم وإيديكم" واحد تاني قال:
-البيبسي كمان مضاد للفيروس.
واحد ممن حضروا الثورة تذكر قنابل الغاز قال هو كمان يفتي والبصل كمان بيعالج الفيروس.
الناس اتجمعت كالجمعة القديمة، المرة دي خايفين برضه من الموت بس بالفيروس، وفجأة وبغير مقدمات اعتلى الدرويش منصة وخطب في الناس:
-أيها البائسون.. التائهون.. النائمون.. الخائفون
تبًا لكم من قوم منافقين!
ألم تعلموا أنه رسالة رب العالمين!
وأنه إذا يشاء على هلكتكم لمن القادرين!
وأنه إن شاء عَذَب.. وإن شاء عفى
فكونوا له من الشاكرين
وعلى أبواب بيوته من الساجدين
ألم تعلموا أنه القوي المتين!

وأن عذابه هو العذاب المهين!
ألم تعلموا أنه هو المُعز المُذل!
وأنه يرفع من يشاء من عباده
وأن الآخرة للمتقين..
فتشوا في قلوبكم، من أين جاءكم العذاب؟
أهو من ذنوب غيركم؟ أم أنكم أهل الذنوب والآثام؟
من كان منكم من أهل الخير فليستبشر، فإنما هو الذهاب إلى النعيم المقيم، ومن كان منكم غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه..
اعلموا أن الباب مازال مفتوح.. باب الولوج إلى الله الكريم.. أيها الناس.. خذوا حذركم واحكموا أمركم، وأحسنوا إلى عيال ربكم، كونوا كما تحبون أن يكون الناس، كلموا الناس بقلوبكم لا بألسنتكم.
طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس
طوبى لمن نصب لنفسه الميزان
قبل أن ينصبه العزيز المنان
طوبى لمن وقف كما يحب له ربنا أن يقف
ومن تاب عن مكان نهاه ربه عنه
أيها الناس اعلموا إنما هذه الحياة الدنيا
وأن الله عنده حسن المآب
واعلموا أن الله مُطلعٌ على قلوبكم وخائنة عيونكم
وما في صدور العباد، سواءً منهم الأشرار أو الزهاد..
من عرف الله عاش.. ومن مال إلى الدنيا طاش،
والأحمق يغدوا ويروح في بلاش، والعاقل عن عيوبه فتاش..

{اللهم عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير}
{تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارًا ذات لهب}

أيها الناس..
استعدوا فإنه ليس عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به، إنه الذي جاء من السماء بأمر رب الأرض والسماء.
طوبى لمن توضأ في بيته ثم جاءه قدره..
طوبى لمن أطعم جاره وهو جائع..
طوبى لمن تصدق وهو محتاج..
طوبى لكل قلب نقي تقي..
وكل نفس لم يغلبها فجورها وأصلحتها تقواها..
طوبى للصالحين أينما حلوا وحيثما ارتحلوا
فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله..
كانت سيارات الشرطة قد حاصرت الجموع، والناس كأن على رؤوسهم الطير، نزل الدرويش من مكانه العلي وجلس على الأرض، طالبت الشرطة الناس بالانصراف، جلست بجوار الدرويش و نجفة تتمتم بكلمات لا علاقة لها بموعظة الجبل تلك على وزن "إنت بتأذن في مالطة".. وهي دي ناس تستاهل! والله ما تنبح صوتك يا مولانا..
ثم التفتت إلى بعيونها تلك التي تستاهل رصاص الأمن المركزي كله وقالت:

-والله سلامات يا سي الأووستاذ، على كده إمبارح كان ليلة القدر، دا أنا دعيت كتير إمبارح إني أشوفك إنهاردة.

ثم وقفت وقالت بصوت عال:
-آه يا بلد الحب فيكي يكسر الضلوع وينيمك موجوع، ملعون أبوك يا إبليس..
فقال الدرويش يكمل على خطاها..
الله حي..

[٢٥]
بركاتك يا دايب

اليوم المتمم للشهر الكريم وهذه الليلة العظيمة، وغدًا العيد.. عيد الفطر بغيرما صلاة، إنها المرة الأولى فيما يتجاوز المائة عام.
أبواب الله على وشك أن تُوصد، يبدو أنه العام الفصل، وفيه سوف تنزوي الحياة الأولى، إن البشر على حافة صوت النداء.. وقت الإمتحان خِلص، كل واحد يحط ورقته قدامه، وينسحب في هدوء.
ما تبقى هو الإعلان.. إعلان النتيجة التي ستحدد لمن الدائرة اليوم.. لله وكتابه ورسوله؟ أم للشيطان وجنوده؟
الثالثة فجرًا بتوقيت القاهرة.. هنا ميدان السِبط الصالح والعبد الصالح، وسيد شباب أهل الجنة..
تواصلت مع نجفة عبر الهاتف حتى اطمئن على وجود الدرويش، صرخت عبر الهاتف -وحسب روايتها بالصوت الحياني-:
-فينك يا أووووستاااذ!! اتعلمت القساوة وبقيت زي حبيبي.. بتنسى يا قمر.. حبايبك يا قمر..
أغلقت الهاتف وأسرعت إلى صاحبي الدرويش، لقيته بوجهه الذي أعرفه، وقلبه الذي يشعرني أنه ليس فيه غيري، احتضنني لزمن لم يشغلني طوله وشعرت بصوت قلبه يخفق فرحًا، وكانت كلماته الهادئة تقول:

- واحشني يا غالي.. وكانت نجفة تقف من خلفي وتقول:
- يا بختك يا مولانا ناس لها أحضان، وناس يتقفل في وشها المخروب.
كانت جرعة الحنان التي تلقيتها من حضن الدرويش كافية شافية حتى أن وجهي كان مبتسمًا ضحوكًا وكأن قلبي يرقص كالأطفال، أمسكت بيد الدرويش أستمد من بركاته شيئًا.
إلتفت إلى نجفة وأنا متبسم الثغر وقلت لها كما تعودت وأنا في مزاجٍ جيد:
- إزيك يا نوجة -وأضفت إليها يا حبيبتي- عايز شوية شاي خفيف من إيدك الحلوة..
فأنا حين يصيبني الرضا لا أميز بين الناس كلهم أُسميهم "حبيبي" وكلهم يرى ابتسامتي وسعادتي، أنا في الحقيقة لا أرى من نجفة أي شيء إلا أنني فرح بالدرويش وليلة العيد، وحالة من التصالح النفسي يمكن أن تجعلني أحتضن عابرات السبيل، تلك الخصلة التي ورثتها من صاحبي "بيسو كلب السكك في روايتنا الحسناء والمجنون".
أنا فَرِح كالأطفال مع الدرويش، إنه مُغتَسَلٌ باردٌ وشراب، وأنا أركض كُلي عند ماء قدميه، إنه وكما تسخر مني طفلتي الصغيرة "بيغسلني من جوه"..
كانت الكلمات لا قيمة لها، إن حبي للدرويش ليس أكثر من انعكاس جلال حبه لي، إنه حقًا صاحب الفضل، كنت أملأ عيني من وجهه الطيب، وأتلقف الكلمات من على لسانه بصدقٍ ورضا، إنه الآن المُعلم الأمين في زمن ساد فيه الجهل والخيانة.

كان مع الدرويش شاب على مقربة من الثلاثين عامًا لم أنتبه أساسًا لوجوده إلا بعد قليل، سلمت عليه وسألته من يكون؟ فأجاب أنا "عبد ربه".

وضحكة من النوع الرخيص تخرج من نجفة.. ضحكة قادمة من وحل الرذيلة وهي تكمل الإسم "عبد ربه الدايب".. ويرد الدرويش عليها عاتبًا، اسمه "عبد ربه التايب" ونجفة تقول:

-واللي خلق الخلق يا أوستاااذ دا لا تايب ولا غيره، دا لولا الدرويش كنت سميته "عبد ربه العايب".. دا رجليه حفيت ورايا في الزقاق، ولما ملقاش حِيلة عمل فيها التايب قدام الدرويش.

وما بين عبد ربه الدايب أو العايب وعبد ربه التايب، اخترت له اسمًا "عبد ربه التايه".

كان الشاب خليط بين كل ما قيل، وكان الدرويش اللحظة الصواب في الطريق الخطأ.. قلت للدرويش علمني فقال:

اعلم أن على الطريق من سلكه لغير الله، إلا أن الله شاء له النجاة، وأن من العباد من تركوا المعاصي رغم أنوفهم، إن الأقدار إذا رضيت أعطت وإن أعطت غطت، وإن غطت سترت وإن سترت جلت، وإن جلت حلت، وإن عبدًا أحبه ربه لحري به أن يسعد ما بعد السعادة.

السائرون إلى المعاصي ضعفاء، إنما هم كالعطشى الذين يشربون الخمر، أو كالجوعى الذين يأكلون الميتة، إنهم هؤلاء الذين غلبتهم أنفسهم الضعيفة، هؤلاء ليسوا أشرارًا لكنهم تائهون.. هؤلاء لهم في رقابنا جميعًا بيعة أن نردهم إلى الله سالمين، هؤلاء غلبت فجور نفوسهم تقواها، وكان حقًا علينا أن نزكيهم حتى يزكوا أنفسهم.

إياك أن ترى في طابور العصاة عبدًا من قبلك، إنك دائمًا آخر طابور العصاة وأوله، والعصاة جميعًا بين بينك، اعلم أنك إن رأيت ذنبه إنما سلمته للشيطان بشمالك، وإن رأيت خيره فاعلم أنك سلمته للرحمن بيمينك.

طوبى لمن كان عند الله من العاملين
وعلى عباده من الساترين
وفي طريقه من الخادمين..
طوبى لمن باع نفسه واشترى مقامه
طوبى لمن عظم الفقير والمسكين
طوبى لمن بكى مع المذنبين..
طوبى لمن لم يُغلق باب التوبة
على عباد الله بذنوبهم وجهله
طوبى لمن كان نورًا في ظلمات العابرين..
طوبى لمن كان الطريق القويم
والصراط المستقيم لعباده التائهين..
طوبى لمن جمع خراف الرب في حظيرته
ووقف على بابها بعصا الراعي للذئاب الضالة
طوبى للذين لم تغيرهم الدنيا
ولم يخدعهم بهرج الشيطان..
طوبى لمن أقام الإنسان بناء الرب
وهزم الشيطان هادم البناء
فالإنسان بناء الرب ملعونٌ من هدمه..

كان عبد ربه التايه فاغرًا فاه لم يتقن كثيرًا مما قاله الدرويش إلا أنه قال:

- الله.. الله عليك يا سيدنا.. أهو دا الكلام ولا بلاش..

كان نصف عين على الدرويش، ونصف على نجفة وعقله لست أدري على أي فرق كالطود العظيم!!

ونجفة من خلفي تقول بهدوء: الشاي يا أوستاذ..

تناولت الشاي وهكذا الدرويش، وعبد ربه كوبًا من شاي غريب ونجفة تقول له:

خلي عينك في كوبايتك ولا إنت معمول لك عمل على فتحة الفستان!!

إلتفتت إليها بغضب، فقالت والسعادة تأكلها:

- والله الزراير مقفولة بس هو اللي يندب في عينه ميت رصاصة..

هو إنت بتغير عليا ولا إيه يا أووستاااذ؟!!

بركاتك يا دايب!!

[٢٦]
عذب الكلام

السابعة والنصف بتوقيت القاهرة، نصف ساعة ويبدأ الحظر.. أعصابي ليست كما عهدتها، ونفسيتي بحاجة للإنعاش، ليس من ضغط العمل فأنا أحب مهنتي، وإنما من كثرة إصابة من أحبهم من أصدقائي وزملاء مهنتي، ولن يخرجني من هذا التوتر ، إلا جلوسي مع درويشي ففي هذا الرجل سر غريب، فعندما ينظر إليّ أحس بيده تربت على قلبي تُزيل عنه غبار الحياة، ويعيد ترتيب الأولويات عندي، ويُطهر سريرتي..

إنه من جواسيس القلوب الذين يدخلون القلب ينقوه ويطهروه، ويخرجوا منه بكُناسة العلائق والعوائق فلا تشعر إلا وقد تغير حالك وتبدلت سريرتك، فقد لاحت عليك لوائح الأُنس ولوائح الكمال؛ فإن القلب الملوث لا يَستحق أن يُجالس الله، فإن لم تُصاحب مثله ليطهر قلبك، لا يصطلُح القلب لتجليات أنوار الله..

ذهبت إلى الحُسين حيث شعرت منذ أول وهلة بتواجد الدرويش، شيء من قبيل قول الله تعالى "إني لأجد ريح يوسف"، فقد استشعرت ريح الدرويش عن بعد، وما أن رأيته حتى تهللت أساريري وتبدل حالي إلى أطيب حال.

سبقني بالعتاب لطول الغياب:

- مالي لا أراك منذ زمن يا دكتور؟!
- أعذرني يا مولانا فالأمر ليس بالهين.
- هو هين على من هونه الله عليه، فقط نحتاج للعقل، والقلب ولكن بلا حجاب..
- أليس العقل نعمة والقلب حكمة يا مولانا؟
- نعم ولكن بشرط غياب الحجاب فالعقل للمُلك لا للملكوت والقلب للفقة عن الله لا للمنازلات.. أقولك يا دكتور.. عليك بالروح..
- وما هي الروح؟
- سر قديم أودعه الله تعالى فينا.
- كيف يا مولانا؟
- تشرفت الأرواح بخطابهِ سبحانه منذ الأزل فشهِدت بما لم يشهد عليه العقل والقلب.
- وما كان في هذا الخطاب يا مولانا؟
- الخطاب يتجلى في قوله تعالى:
{وإذ أخذ ربك من بني أدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين}
- ولماذا الروح لا تسقي القلب من إشعاعات النور يا مولانا؟
- لولا أن الروح تسقي القلب ما وجدت عبدًا مؤمنًا، ولكن تكون سُقياها على قدر صفاء العقل والقلب..
- وكيف يصفو القلب؟

- الأُنس بالله نورٌ ساطع، والأُنس بالخلق همٌ واقع.
- وماذا عن المحبة؟
- أن تحب الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء رَكبك.
- وكيف السبيل إلى ذلك؟
- طريقٌ وحيدة.. محبة وأتباع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كل طرق الوصول مغلقة إلا من باب الرسول.. فلا وصول إلا بصحبة الرسول..
- وما الذي يُسهل الطريق؟
- رضا النفس..
- وكيف ترضى النفس؟
- حين تتعافى السقام..
- وكيف تتعافى السقام؟
- حين ينبت النور، ويذهب الزور..
- ومتى ينبت النور؟
- حين تعتدل الرؤية..
- ومتى تعتدل الرؤية؟
- حين يبدأ الأمل..
- ومتى يبدأ الأمل؟
- حين ينتهي الذنب..
- ومتى ينتهي الذنب؟
- حين تدمع العين..
- ومتى تدمع العين؟

- حين تنظر الروح..
- ومتى تنظر الروح؟
- حين تُبصر النفس..
- ومتى تُبصر النفس؟
- حين يرى القلب..
- ومتى يرى القلب؟
- حين تتجرد إليه وحده..
- وما التجرد يا مولانا؟
- أن تتيقن أن كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام..
- ومتى أول رؤية للقلوب؟
- حين يولد الإنسان..
- ومتى أخر رؤية؟
- حين يفنى الإنسان..
- ومتى يفنى الإنسان؟
- حين يتصوف الإنسان..
- وما التصوف يا درويش؟
- أن تزهد في كل شيء يشغلك عن مولاك، وأن تكون أنت وما تملك مِلكًا لمولاك..

ياا الله..

يا مولانا لقد جئتك محملًا بالهموم والأثقال، أتيتك أَجُر نفسي إليك جرًا، فبعذب كلامك، وتألق حضورك، جعلتني شابًا في العشرين من عمره..
ربنا يزيدك يا مولانا ويبارك لنا في عمرك..

[٢٧]
طوبى للبسطاء

السابعة تمامًا بتوقيت ما بقى من الوقت المنثور حول البقايا البشرية الممزقة في مذبحة الكورونا، شمس الليل باهتة كما قمر الزمان، الأتربة الكامنة تحت ظل وهج الأحداث تنذر بإعصار من سلالات الأموات المتحدة.

بصيص ضوء خافت يوحي بقرب اندثار النور، لحظات وسوف تتهاوى طبقات الظلام والوجع وصعوبة التنفس وضعف الهواء وقلة الماء، لحظات أقرب ما تكون

من الوقوف على طبلية التنفيذ..

رجل على الجانب الغربي من البقعة المقدسة يبول واقفًا وهو مرتديًا الكمامة، صوت الروائح الدنسة تسمعه الآذان إذ أن الناس أمست كما قالوا في بلاد البدء

"ناس مبتشمش"!!

الدرويش في ذي البسطاء الأنقياء جالسًا عند بائع كتب على ناصية الشارع، الأرض مصنوعة من حجر أسود زاد من لمعانه كثرة العابرين، بين الحجارة خط ماء يجري منتهيًا عند الرجل المتبول عند الجانب الغربي، حمل الدرويش جردلًا من الماء غسل به دنس الأحجار ونجس الصورة..

احتضنته متألمًا لفراق زملاء كانوا في أجندة العابرين بالكورونا، جلست ولا شيء في نفسي لأقوله، الصمت أعظم الكلمات حين لا تفي الكلمات بمعاني الصمت.

قال الدرويش وعلى غير عادته:

- أنا جعان.. مش ناوي تاكل يا صديقي؟!

نظرت إليه وأنا قلق أن يكون جائعًا، وإن كان الذي أشعره أنه يريد أن يُطعمني لأنه ظاهر على وجهي الحُزن.. ذهبنا إلى محل جانبي وطلبنا طعامًا، قال الدرويش:

- بسم الله.. هتاكل ولا هتقول لنا منكلش!!

أدركت أن الهدف هو ما توقعت، كان الدرويش يجلس أمامي، و نجفة ملتصقة بجانبي الأيسر مغروزة في اللحم، لا يصدها موت ولا يردها وجع ولا يثنيها سقوط السقف، قال لها الدرويش:

- إنتي غيرتي همومك إمته يا نجفة؟!

قالت وهي تُخرج شعرها من تحت الطرحة:

-الأووستاذ مش أي لبس ينفع نشوفه فيه، بس هو يجرب يقول إنه جاي ولا حتى يطلع الأوضة وهو يشوف أحلى لبس، كنت غائبًا إلى حد كبير، وهي كانت سعيدة أنها مغروزة في لحمي، والغريب أنها تراني لا أقاوم بينما أنا في الحقيقة غير مكترث..

قلت للدرويش "بسم الله"، وقلت لنجفة "اتفضلي"، وأنا أمسكت قطعة خبز وقطعة لحم ولم أكن مهتمًا بالأكل إلا أن نجفة كانت مشغولة بزيادة، وبدأت في وضع الأكل في فمي، وتأكل في كل مرة نصف اللقمة وهي سعيدة سعادة التي تزوجت ممن عشقت..

في اللقمة الثالثة شكرتها.. فقالت والله تعدمني لو ما أكلت دي.. وزادت فتح زراير الفستان الذي كشف مالا يجب كشفه، وكانت حجتها هدعي على نفسي وباب السماء مفتوح.. يرضيك كده يا أوستاااذ!!

بينما هي تركز جيدًا في أي مكان ستسقط عيناي.. قلت للدرويش: أفتني يا سيدي.. فقال:

إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها..
وإن الأقدار إذا حكمت قضت..
وإن القضاء إذا وقع فلا راد له..
ولا يرد القضاء إلا الدعاء..
وإن الدعاء رأس العبادة..
وإن العبادة مخ الإيمان..
وإن الإيمان رأس الإسلام
وإن الإسلام علم التسليم..
وإن التسليم غايته النجاة
وإن النجاة هي طريق الرضا..
وإن الرضا هو سكون القلوب..
وإن القلوب هي بيوت الله..
وإن بيوت الله في أرضه المساجد..
وفي عباده القلوب الخالية من الدنيا
وإن الدنيا هي زينة الفواحش
وإن الفواحش هي زاد الأجساد

وإن الأجساد هي النقطة الساقطة من البناء
وإن البناء هو بناء الرب
وإن للرب في البناء بيتًا
وإن في البناء لغير الرب هوىً
فمن سلم البناء لصاحبه نجا
ومن سلم البناء لغير صاحبه هوى
فمن زكى تزكى.. ومن دساها فقد أفناها..
طوبى للعابرين في أجسادهم الذين لم يقيموا فيه ليلة على غير حق أو هدى..
طوبى لمن سكن البناء ضيفًا
فلم تشغله جدران ولم يقلقه سقف..
طوبى للزائرين الذين لم يشتروا أجسادهم
ولم ينيروا ظلمات أهوائهم كي يرونها..
طوبى للذين عبروا دون أن يتحسسوا الشهوات
ولم يجرهم الجهل للنزوات..
طوبى لمن أناروا أرواحهم خارج البنيان
فلما دخلت أطفأ نورها ظلمة الحيطان..
طوبى للسالكين الصالحين العابدين العابرين
طوبى لمن كانت وحدتهم صُحبة
وصحبتهم رحلة.. ورحلتهم زاد الطريق..
طوبى لكل روح لما دخلت الطين أنارته
طوبى لكل روح سَمت بمن عرفت

طوبى لكل روح جاعت عن المعصية
وشبعت عند أول قرش حلال..
طوبى للذين إن غابوا لم يفتقدهم أحد
وإن تكلموا لم يسمعهم أحد..
طوبى لمن كانت أصواتهم تنير طرقات السماء
طوبى لمن غُلبوا في الأرض وكانت رِفعتهم في السماء..
طوبى للمخلصين الصامتين الآمرين بالمعروف في غير معصية والناهون عن المنكر بغيرما منكر..
طوبى لمن أحبوا عيال الله فرفقوا بهم
طوبى للبسطاء الأنقياء..
طوبى لكل قلب في خفة الطير
طوبى لمن لم يحب الإثم يومًا..
كانت الكلمات تأسرني، ونجفة قد نامت على كتفي بعدما لاحظت أني لا أقاوم، يبدوا أنها تيقنت أن مقاومتي قد نفذت.. رفعت رأسها من فوق كتفي وهي تدَّعي أنها نائمة، فقالت بصوت الحانة:
الله يسامحك يا أووووستاااذ..
صحيتني من الحلم اللي نفسي فيه..

[٢٨]
إنك لكبيرهم الذي علمهم الحب

الساعة تدق الصادقة والليل من خلف كل الأضواء يُصر على الظهور، وصوت الصمت العابر بين طابور الكلمات المبهمة يوحي أن الليل لا يسبق النهار.
الدرويش..
و نجفة..
وتوحة..
والعبد الحائر ..
وأنا..

قالت نجفة بلا أي مقدمات:
-إنت إيه رأيك في الحب يا أووستاااذ..
نظرت إليها وهي تفيض غضبًا على غير عادتها وقد أغلقت زراير الفستان، واتشحت بموجة من ياقوت العقل الذي لا تملكه فيما أظن، وضعت ساقًا على ساق على غير عادتها في حضوري، وهزت ساقها اليمنى ليتحرك شبشب مغلوط الهيئة رغم بريق الترتر عليه، كان لون الكحل في عينيها مرسوم بحنكة نساء الخان المجاور للماشطات منذ ماشطة ابنة فرعون..

ترددت في الرد فهذه ليست نجفة التي أعرفها لكنني قلت:
الحب أعظم حاجة في الوجود.
نظرت بنصف عين لي تلومني وقالت:
يعنى إيه الكلام اللي ميجيبش عيال ده؟!!
واضح إنها شاربة سيجارة حشيش لكن طالبه معاها معرفة وأفكار عميقة -فكرت في حالها بيني وبين نفسي، قلت وأنا أغض شياطيني عما تفعل..
الحب ترياق المحبين، ثم تبادلت مع الدرويش نظرة قطعتها توحة بزفرة من وزنها الثقيل مخلوطة ب "يا خرابي على الحب وحلاوته وناره ولياليه"..
ليكمل العبد التائة:
الحب هو الود والحنية، لتلكمه نجفة قائلة:
نقطنا بسكاتك يا دايب عايزة أسمع الأوستاااذ..
طلبت من الدرويش أن ينقذني إلا أنه سلمني تسليم أهالي قائلًا:
رد على نجفة يا أووستاااذ.. كانت الردود متداخلة في عقلي، وأقلقتني عصبيتها، وصدق الكلمات تكشف الكذب ولو مرتب -وأنا أكره الكذب أو أدعي ذلك..
نظرت إليها وأنا أتكلم قائلًا:
الحب حاجة صعب تتوصف يوم بالكلام
الحب حالة تبقى فيها عايز تحضن الدنيا كلها
الحب حالة رضا فوق الرضا
الحب حاجة ملهاش سبب

ولو بقى لها سبب متبقاش حب
الحب عامل ذي لحظة دخول الجنة
اللي احنا مش عارفين هتكون إمتى وإزاي!
الحب حالة تصالح مستحيلة
الحب حد من زمنك اللي فات
ومن عمرك اللي كان نفسك تعيشه
الحب رزق جه في وقت احتياجه
الحب لقمة جت في عز ما إنت جعان
الحب شربة مايه في الصحرا في لحظة موت
الحب زمزم لما تفجرت لهاجر
الحب هاجر لما قالت لإبراهيم أنا حامل
الحب ضحكة سارة لما الملائكة بشرتها
وهي عجوز بعطية الله
الحب دموع إبراهيم لما شاف الكبش
الحب لحظة توافق عظمى مع الكون
الحب نغمة في أوركسترا الحياة
الحب حاجة حلوة قوي لدرجة صعب تتوصف..
الحب حب.. هو كده..
كل وصف له تقليل من قيمته ومن قدره ومن طعمه..
الحب هو الحب..

كانت دموع نجفة تحمل الكحل المرسوم على عينيها لترسم على خدودها أخاديد الألم والوجع والفشل، أنزلت ساقها عن الأخرى، ودون أي مقدمات احتضنتني في الشارع، كان صوت بكائها مؤلمًا..
قميصي الأبيض تحول كتفه إلى اللون الأسود المخلوط بالدموع والألم وخيبة الأمل، ثم رفعت رأسها وضحكت بصوتٍ عالٍ قائلة:
أنا آسفة بجد.. وسخت قميصك يا أوستاااذ.. بس أنا كده ارتحت.. ما تقوم تقلع القميص علشان أغسلهولك!!
كانت سعيدة أنني لم أدفعها بعيدًا عني، وسعيدة أنها بكت على كتفي، وسعيدة لأخر ما قالت..
إنت حضنك حنين قوي يا أووستاااذ..
إلتفتت إلى الدرويش لأرى نور أسنانه الباسمة، ونور عينه الذي أحبه، وضياء وجهه الذي علمني الحب وهو يقول لي:
"إنك لكبيرهم الذي علمهم الحب"

[٢٩]
بين يدي الدرويش

الساعة الآن الرابعة فجرًا بتوقيت القاهرة، خارج من الجامع اللي جنب بيتي كنت بصلي الفجر وإذا بمفاجأة من العيار الثقيل.. الثقيل جدًا..

نجفة واقفة قدام باب بيتي.. تيبست من هول المفاجأة فسبقتني هي بالقول:

مالك اتخضيت كده ليه هو أنا عفريت، دا أنا قلت لما هتشوفني هتطير من الفرحة.. يا مين ينولني الحتة القاسية اللي في قلبك كنت عضيتها بسناني..

قلت لها: أهلًا وسهلًا يا نوجة زيارة عزيزة.. اتفضلي.

على درجات السلم أحدث نفسي، دي عرفت بيتي منين؟ وإيه اللي جايبها؟ لكن مش من الذوق أسأل عن الكلام ده في الشارع، سألتها على السلم:

سيدنا الدرويش بخير؟ قالت ما هو اللي باعتني، بيقول إنك بترد له الروح لما بيشوفك وعنده حق والله..

دخلت من باب البيت وخلفي نجفة تقول:

بسم الله ما شاء الله.. دا إنت فعلًا ابن أكابر ربنا يزيد ويبارك.. في هذه اللحظة نزلت نور من الدور العلوي -ونور قريبة من البلد

ومتجوزة من عيلة أمي- هي شابة تلاتينية مثقفة ولبقة وعارفة نجفة من الرواية السابقة، لكنها لم ترها من قبل.. قالت نور:
- تقبل الله يا دكتور.. إنت معاك ضيوف؟ أجبتها: دي نجفة، قالتلي نجفة بوجع:
- إنت إتجوزت يا أووستاذ؟! علشان كده غيبتك طولت؟
ونظرة حريمي جابت نور من فوق لتحت.. قلت لها:
لا يا نجفة دي نور بنت خالتي ومرات ابن خالي.
نور و نجفة تفحصتا بعضهما البعض، ورغم تعاطف نور قديمًا مع نجفة إلا أن الواقع كان مزعجًا لها.. قلت لنجفة:
اتفضلي دقايق ألبس وآجي معاكي للدرويش، وتبادلت مع نور نظرة معناها.. علشان خاطري قدمي لها حاجة تشربها.. نور رغم الكثير من حب الاستطلاع معجبهاش لغة نجفة.. ونجفة مش طيقاها..
جرت نور على المطبخ لتأتي بصينية عليها كوباية وكولا كانز وقدمتهم لنجفة التي قالت لها:
إنتي بجد تقربي للأوستاذ؟ قالت نور وعلى وجهها ابتسامتها الطيبة: طبعًا قريبته.. أومال أنا هنا إزاي!!
تمتمت نجفة وحركت فكها قاصدة إنه عادي يعني يمكن تكوني جاية تطمئني عليه.. نظرت لها نور نظرة تقول "مش كل الناس نجفة" لم تسكت نجفة وأردفت قائلة:
هو انتي متجوزة؟؟
لم ترد نور فأكملت نجفة أصل شكلك صغير يعني..

نزلت بسرعة لألقي بآخر جردل ميه قبل اندلاع الحرب، تبادلت معي نور نظرة قالت فيها:

- إيه الأشكال دي؟ ثم سألتني:

- إنت خارج يا دكتور؟

فأجبتها: أنا رايح للدرويش.

قالت: طيب من فضلك انتظرني أنا جاية معاك، أنا كان نفسي أشوفه من زمان، ردت نجفة قائلة:

هو الأستاذ صغير ولا هيتوه؟ ثم قالت -بصوت لم يسمعه غيري- ولا هي تلاكيك!!

وبينما نور تستعد للخروج معنا قالت نجفة:

هي الحلوة دي غيرانة من إيه؟! ولا هو كده نصيب قليل البخت يعضه الكلب في المولد!

نزلت نور وخرجنا من البيت، دخلت الجراج لأُخرج السيارة، كانت نجفة تحلم أن تكون بجواري لكن نور فتحت الباب وجلست لتترك لنجفة الكرسي الخلفي، كنت خايف العربية تنفجر من حجم الغضب المكتوم داخلها، قالت نجفة لنور:

حلو الطقم بتاعك ده بس شعرك طالع من ورا وانتي محجبة، ولا إنت إيه رأيك يا أووستاذ؟!

ساد الصمت بعدما فرضت حظر الكلام، وشغلت الشيخ سعد الغامدي سورة يوسف.

وصلنا إلى الحسين، تقدمت نجفة السلم ومسكت بيدي قال إيه النور مقطوع، ولم تهتم إن نور ممكن تقع على السلم، وأعتقد هذا حلم نجفة.. فقد أصبحنا الآن في ملعبها..

وصلنا السطح خلعت نجفة الطرحة ليتهادى شعرها كالحرير وقالت "الدنيا حر بزيادة" ثم نادت على نور قائلة:

اتفضلي يا.... هو انتي اسمك إيه يا أبلة؟

قالت نور في غضب: متشغليش بالك.

تبادلت نور ونجفة كل نظرات الكراهية والغضب بلا أي مبرر.. لكن وأنا مالي.. ياكش يضربوا بعض، أنا مش ناقص..

دخلت على الدرويش في حجرته فإذا به في ثياب طيبة معطرة، احتضنته وقبلت يده وقلت:

- حقك عليا يا سيدنا منعني عنك الشديد القوي.

قال لي:

أنا حسيت إن عمري بيقصر في غيابك فبعت لك الحمام الزاجل يجيبك.. تسكت نور!! مستحيل كانت تجلس خلفي، فسمعتها تُتمتم:

حمام زاجل!! دي غراب البين.. -لم يسمعها غيري- كانت نجفة قد خلعت الجلابية ولبست حاجة كده شبه قمصان النوم وعليها روب ولونه تايجر ولا عروسة يوم الصبحية!

ارتسم على وجهي ابتسامة، فقالت نور بصوت خفيض عجبك الطقم ولا إيه؟!

وقالت نجفة:

-الدنيا حر ومحدش واخد منها حاجة.
كنت أجلس على الأرض بين يديّ الدرويش، ونور تجلس على كرسي خشبي متهالك خلفي، و نجفة قررت أن تفترش الأرض من أمامي كي تكون في زاوية عيني وعين نور وعين الشيطان..
طلبت من الدرويش النصيحة، فقال:
اعلم أن الذي جاء بك إلينا إنما هي الدنيا، فلو كنا في قلبك لجئتنا دون أن نرسلها إليك..
واعلم أنك ابن أحدهما.. ولا يكون أبناء الدنيا أبناءً للآخرة..
اعلم أن من أحب عرف، ومن عرف اقترب
ومن اقترب وهب، ومن وهب نال
ومن نال صال وجال، ومن جال نسى المحال.
واعلم أن القلوب أوعية والحب شرابها
والألسنة مغارفها وكل قلب بما فيه ينضح.
وأن مجاهدة النفس أصل كل الفضائل
وإن ترك الذنوب مقدم على أدراك الخيرات
فإن كل إناء لا يملؤه الماء حتى يُغسل من كل حيث سبق..
واعلم أن التخلية قبل التحلية
وأن الزاهدون في الدنيا هم أهل معرفتها الحق
فإن الجيف لا يتقاتل عليها إلا الكلاب
وأن هذه الدنيا جيفة والمتقاتلون من أجلها كلاب
أعلم أن من نزل بها مشغولًا بأمرها
فهو كمن استقر في بئر حين أصابه العطش

ونسى الزاد والطريق فإذا ما جَنَّ عليه الليل
وانقطع عنه الزاد ما نفعه الماء ولو كان صالحًا
من تَرك تْرك.. ومن هَجر هُجر.
اعلم أن السالكين قلة والهالكين كُثر
فلا يغويك قلة السالكين ولا يغرنك كثرة الشاردين..
واعلم أن إبراهيم كان أمة
ومن باع نفسه لله فما لأسواق الدنيا عليه من سبيل..
ومن كان لله عبدًا.. كان في الدنيا سيدًا.
وأن أبناء الملوك ملوك، وأبناء ملك الملوك أسياد الملوك..
كانت نور يشغلها كلام الدرويش وتغضبها حركات نجفة، بينما نجفة
في عالمها الآخر، سألتها لأكسر هذه الحالة الغريبة:
إنتي عرفتي طريق البيت إزاي؟!
فردت بخليط من المكايدة والإثم:
مشيت ورا قلبي لحد ما دلني عليك..
يا مين يدلني ع الحتة القاسية اللي في قلبك!!

[٣٠]
واصطنعتك لنفسي

"والفجر وليالٍ عشر" كنت أُصلي خلف الدرويش وكان يقرؤها، انتهى من صلاة الفجر، والتفت ليجدني خلفه في الصلاة ليلاقيني بترحاب ما بعده ترحاب، حُب من النوع الجِبلي أحسبه خالص لوجه الله..

خرجنا من المسجد نستنشق بعض الهواء ذلك الخالي من ذنوب العباد.. كان الدرويش يملأ صدره من الهواء بتمتع، ثم يقول "اللهم لك الحمد على نعمك كلها".

حالتان كنت أراه منتشيًا فيهما.. هواء الفجر وشرب الماء البارد، كنت أشعر أنه يسعد بهما أيما سعادة، وكان يكرر حديثًا "اللهم إنك أحب إليّ من الماء البارد"

كان يستند إلى ذراعي محبة والتآمًا، أشعر أنه الجزء النقي من التجربة الآدمية، وبينا نحن في الطريق تظهر نجفة وتقول له:

- يا بختك يا مولانا.. عقبال ما أمسك في إيده، ويكون ما يكون.. نظر إليها وقال بهدوئه المعهود:

- لكن لن يكون إلا ما يكون.. أقلام رُفِعَت، وصُحف جَفت.. لم تفهم ما يقول واقتربت مني وقالت:

- هو إنت معندكش قلب دا إنت لو حجر كان داب، أنا تعبت من كتر قسوتك، هو أنا مزعلاك في حاجة؟ ولا أنا وحشة ومش على كيفك؟

صحيح فيه ألف من يتمناني، لكن أقولك إيه القلب وما يريد، وأهو قلبي ده اللي ذلني عندك، ويا ريتني قادرة أبعد أو أكرهك أو حتى أبطل أفكر فيك..

تصدق بإيه يا أوستاذ!!

قلت لا إله إلا الله.. تصدق أنا قلت إنك أكيد ساحرلي، يعني عامل لي عمل ولا حاجة كده، نظرت إليها قائلًا:

يا نوجة إنتي أختي الغالية..

غضب وفرحة، ومشاعر غير مبررة ثم قالت:

بس بلاش أختي دي، لا أبويا أبوك.. ولا أمي أمك، لا مؤاخذة يا أوستاذ قصدي بابا وماما.. بس تصدق وتآمن بالله.. أنا النهاردة عندي عيد إني غالية عندك، طبعًا إنت مش مصدق إنت عندي إيه، تبسمت وقلت لها:

- أنا عارف أنا عندك إيه.. فقالت بدموع مخنوقة:

- طب بتعمل فيا كده ليه وإنت عارف إنت إيه؟

قلت بهدوء الدرويش:

-علشان أفضل غالي عندك.. لازم أفضل عالي في نظرك. أمسكت بيدي الأخرى وهي في نشوة لا تدانيها نشوة، وعادت طفلة صغيرة تمسك بذراع تتوقع منه الأمن والأمان، كانت تتمنى أن تسند رأسها على كتفي، إلا أنها خافت أن تخسر ذراعي وكتفي..

جلسنا على مقهى مُسدلة أبوابه وسألتني نجفة تشرب إيه؟ قلت لها "أنا صايم" النهاردة اتنين وذو الحجة، كان الدرويش يسمعني فقال: يبقى فطارك معانا النهاردة يا أوستاذ، وضحك من قلبه فقالت نجفة:

والنبي ما تقول لا.. دا يبقى يوم العيد.

إلتفتت إلى الدرويش وهو يجيب عني.. الدكتور هيفطر معانا، خلاص يا نجفة..

قلت له: عظني يا سيدي، فقال:

اعلم أن لكل منا مولد بالجسد ومولد بالروح.. مولد الجسد لا قرار لنا فيه، لكن مولد الروح نحن فيه أصحاب جِهاد، فالذين جاهدوا في الله ليهدينهم سُبله..

واعلم أن المَولِد الجديد هو العودة إلى نقاء الخلق الأول وهو مولد عظيم فيه تبيع الماضي كله وتشتري اللحظة الحاسمة، فإن السوق مُتسِع، والشاري عظيم، والثمن الجنة..

اعلم أن المَولِد الثاني هو أصل الإيمان، فإن الطريق موحل حتى تجد المغتسل وما قبله ليس كما بعده..

اعلم أن من خطى على الطريق وصل، وليس الطريق بالهين ولا البسيط، فإن أشواك الماضي تُكدر صفو ما قبل المغتسل، وأن الطريق يضيق حتى يتميز الصادق من الكاذب..

واعلم أن السلعة عالية والسعر غالي، وإن الناقد بصير والعقبة كؤود، وإن الزاد قليل والرحلة طويلة..

اعلم أن من أخلص نال الشرف، ومن نال الشرف ترك الترف، ومن ترك الترف لله عوضه بلا تلف..

اعلم أن من ترك هواه توبة جعل الله هواه فيما قضى له، وجعل رضاه فيما أعطاه، وكتب بين عينيه نور السكينة، وملأ قلبه من شذرات الحب، وجعل الدنيا تحت قدميه راضخة..

اعلم أن من أعتز بالله كانت له السماء والأرض مخرجًا ومن جلس على باب الكريم ما عاد خالي الكفين أبدًا..

ولتعلم يا صاح أن الطريق مظلم في عين التائهين منير في عيون العائدين، وأن من باع نفسه لله فقد باع نفسه للغني العزيز، القوى الكريم، الحكيم العليم..

واعلم أن عبيد الجبار مجبورين فهم في معية سيدهم ومن كان في معية فهو مع الله.. وأن في مثل هذه الأيام تجلى ربنا على الأرض بكلامه ورسالته، وقال لكليمه موسى "واصطنعتك لنفسي" وقال له "ولتصنع على عيني".

هذه أيام يتجلى فيها العظيم على عباده فلا تكن من الغافلين.. وأَحِب الكريم تكن من الفائزين..

من شغله ذكره عن مسألته أعطاه فوق ما يعطي السائلين.. ومن سأله بقلبه لا كمن يسأله بلسانه فقد قال:

"يا موسى صاحبك يدعوني بلسانه وقلبه عند غنمه وأنا لا أقبل شريكًا في قلب عبدي"

هنا ظهرت نجفة تقول:

بتحب العكاوي يا أووستاذ؟! ولا أعملك شوية كوارع يرموا عضمك؟ ولا ولاد الأكابر مش بياكلوا الحاجات دي؟

اعملي أي حاجة يا نجفة.. أنا مش من أولاد الأكابر..

وأبوس إيدك إرحميني.. أنا صاايم.

[٣١]
دا الدرويش طلع حكاية

أكوام من وجع منتشر في طرقات الحياة، وغرفات ألم وتعذيب ينصبها كل منا لذاته أو لغيره، وباعة جائلون لا يذكرون اسم الحلوى، ونساء أقرب ما يكونون إلى حبات الحنظل الأرجوازي الطعم بلا هيبة في لونه، ولا رائحة من إصابات الكورونا، لحظات من وهج الوجع المنثور على أسوار مدينتنا.

أنا في حاجة أن ألقى الدرويش، لحظات الجلوس معه تفرغ من النفس كل عكارة الغياب.. وها هو جالس حيث دلني عليه قلبي، عند بائع حبات الاستغفار في الأيدي التي فُصِلت عن قلوبها الغائبة أو التائبة.. رَحَبَ كعادته ووقف يستقبلني استقبال الفاتحين، وبلا شك كانت نجفة ظلًا ظليلًا بلا غبار ولا دليل، كانت عيونها تتكلم من خلال الكحل الذي أخذ بعضه العرق ليرسم على خدودها طريق أسود هالك غير متهالك..

سلمت من طرف يدها، ومن عميق قلبها وقالت كالمجانين "عليا الطلاق منك إنت عاملي عمل"..

ضحكت بصوت عالٍ من يمين الطلاق المقلوب المغلوب المنكوس، ومن قصة الأعمال اللي ماشية في البلد اليومين دول، ثم أكْمَلَت وقالت:

لكن على قلبي ذي العسل، زيد إنت في التقل وأنا قلبي يتمرمط وراك.. والله سلامات يا أووستاااذ..
"واحشنى وإنت قصاد عيني" كان صوت أم كلثوم يأتي من المذياع ونجفه تُكمل الكلمات على هواها "واحشني وإنت جوه نن عيني"، كان وجهي باسمًا وهذا بالنسبة لها يوم العيد وليلته..
قلت لها عايز أشرب يا نجفة، قالت كالسكارى:
الكتف زاد والعين ميه.. إن كنت عطشان أجيب لك ماء زُلال وأسقيك، وإن كنت بردان فستاني الحرير يدفيك ويا ريتك في مرة ترضى ومن خمر شفايفي أرويك..

زادت ضحكاتي ولُذت بصمتي، وهي جرت بأجنحة من خيال الحب نحو نبع ماء زمزمها، زجاجات الماء يتساقط من جدرانها كل ما لا تحكيه الكلمات، مِلتُ على سيدنا فإذا به منتبه للحوار وعلى شفتيه ابتسامة عاشق من زمن "هات عنيك تسرح في دنيتهم عنيا".
قلت له:
ما تحكيلي قصة حبك، قال وكأنه خلع شرنقة الدرويش وعاد ألف ألف عام في سجلات أهل العشق يبحث، ثم قال:
كان أحلى يوم في عمري، كنت بدأت أُظهر لها حبي واتتبعها كل يوم، كانت زميلة سيكشن وتبدأ بنفس حرف اسمي..
هي مثل حوريات كوكب العشاق الملاصق لكويكب الشغف في مجرة أهل الحب عند همسة ملتقى الزمان والمكان وعلى بعد ألف ألف سنة عشقية..

استوقفتها بعد محاضرة لم أسمع منها شيء، كانت ترسم ضفيرة شعرها ديل فرس.. كانت في هذا اليوم تلبس بلوزة أبيض في أخضر مع جيبة سوداء تتجاوز الركبة، ولها عينان باسمتان غارق بياضها في جمال سوادها..

توقفت لأقول لها:

- بالمناسبة أنا عايز أقولك إني بحبك وعايز أتجوزك.. كنت أسمع نبضات قلبها وأكاد أن أسقط مغشيًا عليّ من سرعة ضربات قلبي.. لم أنظر في عينيها حتى أتممت كلامي، ثم نظرت في عينيها لأرى تلك النظرة التي يصعب أن تغيب.. قالت بنور عينيها كل شيء.. قالت:

- إنت حد يشرف أي بنت إنها ترتبط به.

عارف يعني إيه لما الزمن يقف!! عارف يعني إيه لما الحياة تحلو!! عارف يعني إيه لما تكتشف إنك لقيت نفسك!! قلت لها:

إنتي عارفاني طول السنين اللي فاتت وأنا أجد أن من الأدب ألا أقف وأكلمك حتى أتقدم لأهلك رسمي، لكن أنا مقدرتش أنتظر الكام شهر الباقيين في البكالوريوس.. كان لازم أقولك إنك حتة من قلبي.. أو إن صح القول.. إنتي كل قلبي..

لون خدودها البيضاء المُشربة بحمرة الخجل وعيناها السوداوان اللتان صنعتا تاريخ الحب في موسوعة ما قبل نشأة الزمان والمكان.. هنا يسكن الحب.. هنا تبدأ الحياة.. هنا أول زيجة حُب بين إنسي و حورية من حوريات الزمن الآخر.. هنا ما لم يكن يومًا هاهنا..

قاطعت الدرويش بصعوبة، إنه يتحدث بعد ألف عام من الصمت، وبعد ألف ألف صومعة من غلال الحب زرعت ونمت وترعرعت حتى حولت صحاري التاريخ

جنان يافعات.. سألته:
وبعدين إيه اللي حصل؟!
قال هذا هو اليوم الوحيد الذي عشته، أنا عمري الحقيقي ٢٤ ساعة.. في اليوم ده شوفت الدنيا بعيون لم أرها بها من قبل، تخيل أني لم أر في هذا اليوم نساء..
تخيل أن الطرقات كانت خاليات إلا من نور عينيها وبسمة شفتيها وصوت صمتها ورقة حنان جناح طائر عشقها..
يا صاحبي إن الدنيا أعطتني هذا اليوم كي أذكرها ما حييت وهي بلا شك تستحق..
"الله.. الله يا مولانا".. قالتها نجفة ثم أردفت:
- دا إنت طلعت نِمس قديم أهه، أتاري الأووستاااذ حَبك من أول نظرة، هي كده قلوب العاشقين بتتلاقى.. الدور والباقي على الغلابة..
ثم نظرت إليّ قائلة:
- ياريت كان بإيدي كنت قطعت قلبي بسناني، ولا حتى أكلت قلبك وشربت من دم قسوتك..
إتفضل المية يا أووستاااذ..

[٣٢]
حب وضياع

كل ليل وله آخر.. وكل حوت وله صياده.. وكل صمت وبعده أطيب الكلام..

كان ليل الحسين يزحف ليُغطي نهاره المفعم بحيوية الوجع، وبينما أنوار النهار تغيب تزحف أنوار ظلمة الليل الغربيب، وبعد كل ألم راحة ما بعد العناء.

نجفة تلك المصباح المحترق على أسلاك أفراح المكان البائس، الدرويش في لحظة عودة لأرض لم يطأها منذ زمن المغيب الأول، خلع عن رأسه غطاءه الذي لم يخلعه أمامي من قبل، لون شعره خليط بين الأبيض والرمادي، ناعم وطويل ويملأ كل رأسه، أقرب ما يكون إلى الأتراك في هيئته، ولون بشرته البيضاء المشربة بحمرة..

لاحظت شيء ما يظهر في رأسه، وكأنه جرح قديم.. قلت له أكمل سيدي الدرويش:

أخذ نفسًا عميقًا من بعض الهواء المخزن في قاع رئتيه القديمتين، هواء مختزن منذ آخر هواء استنشقه وهي تحدثه، كان يخطف الهواء المخلوط بحروف كلماتها معه ويحفظه في مكان بعيد في رئتيه حيث لا يعرف الهواء الجديد طريقًا إليه، ولا يمر الدم من هناك..

كان يستخدم هذا الهواء في موضعين.. لحظات تذكرها ولحظات الألم، سعادة الأمس انسحبت من تقاطعات لحن صوته، قال بصوت غير صوت الأمس:

مكانتش من نصيبي..

أشم رائحة الدرويش تزحف لِتُخفِي شخص الأمس الآخر، قلت له كمل حكاية إمبارح، أنا عايز من عند الدنيا لما بقى لها طعم جديد.. وكأنها حقنة من إكسير الحياة لطيار محارب عائد من ضربة جوية، مُجهد مُنهك مُصَر على العودة لكن قواه توشك أن تخور، وهذا الإكسير يدفعه إلى الحياة مرة أخرى..

كان لون عينيه يتغير، نغمة صوت عشقه تتبدل، وجلسته على الأرض تسموا، إنه الآن يستحضرها ثم قال:

دي حكاية صعب تتحكي أو تتقال.. دا إحساس صعب جدًا أعرف أوصفه.. عارف يعني إيه لما الدنيا كلها تبتسم لك يوم كامل!! عارف يعني إيه لما العمر كله يتلخص في يوم!! عارف يعني إيه لما عنيها تقول بحبك!! عارف يعنى إيه لما حد يسلمك شهادة وجودك وخلودك!

هو كان اليوم ده.. يوم بالعمر كله، هي قالت اللي قالته بعنيها وغابت.. وأنا أتناثر في ذرات عبير جمال خيال محبتها.

سِرتُ على بعد أمتار منها أجمع كل شيء لامسها، وكل لا شيء طاف من حولها، الهواء.. ذرات التراب.. موضع أقدامها.. بوابة الكلية التي لمستها بأطراف أنامل رقة رونقها، الشجرة أمام الكلية حيث دارت حولها نصف دورة لكي تعطف على بنظرة قبل المغيب..

لو تعلم كم مشيت هذا الطريق؟! لقد مشيته ألف ألف مرة من بعد هذا، هذا المزار الذي عشت فيه..

رَكِبت الأوتوبيس وظلت تنظرني حتى غابت، أما أنا فلقد أفقت بعد ستة أشهر من غيبوبتي.. إن الشارع لم يكن خاليًا وأنا أعبر دون حذر، ارتطمت بي سيارة مُسرعة، أُدخلت العناية المركزة ومكتوب على ملفي المرضي "مجهول الهوية"...

لم تكن تعرف سر غيابي ولا طريق الوصول إليّ، أهلي عملوا صوان وأخدوا عزاي في البلد، الكلية اتبلغت إني مفقود وفي عداد الموتى..

ثم قال كلمة مخيفة..

إنت ناسي إن إنت الدكتور اللي أنقذ حياتي في طوارئ القصر العيني!!

أنا لا أذكر شيء من هذا، ربما أكون قد انقذته في لحظاته الأولى لكنني لم أتابعه بعد..

ثم كيف عرفني بعد هذا العمر وقد كان ساعتها في عداد الموتى؟!

[٣٣]
يا خيل الله اركبي

باب البيت يطرق بشدة.. خير اللهم اجعله خير، هات المخبي لطيف يا رب.. فتحت الباب وأنا ألبس ملابس البيت العادية وإذا بنور وجهه الطيب.. إنه الدرويش.
احتضنته كثيرًا حتى اختلطت أضلعنا وقلت له اتفضل يا مولانا.. كانت خلفه نجفة، قلت لها اتفضلي يا نوجة قالت حاف كده؟ مفيش حضن ذي حضن مولانا؟!
ناديت بالطعام لكي نأكل سويًا ونجفة تقلب كل شيء بعينيها، قال الدرويش يحدثني:
إنت فين يا سيدنا؟ قلت له العفو إنت اللي سيدنا، ثم أردفت قائلًا: كنت تعبان شوية يا مولانا.
قال فى حنان الأب سلامتك فيك إيه؟
قلت ألم في الضهر لكن أحسن الحمد لله.. قالت نجفة:
- بعيد الشر عنك "إنشاله" اللي يكرهوك، خلعت عن شعرها الغطاء ليتدلى شعرها إلى مالا نهاية، ثم تمسك بشعرها وتقول:
- شوف يا أووستاذ.. شعري بيقع خالص إنت إيه رأيك؟

قلت في نفسي اللهم اخزيك يا شيطان، غطي شعرك يا نوجة وابقى اكتبلك علاج بعدين.. ذهبت نجفة لتساعد الطباخة في تحضير الطعام فنظرت إلى شيخي لأسمعه وهو يقول:

اعلم أن كل حب دون حب الله و رسوله دون، وكل غضب دون الغضب لله ولرسوله دون، واعلم أن الدفاع عنه فرض عين لا يسقطه رد فريق دون فريق..

واعلم أن الموت دونه نصر، وأن السكوت عنه ذل، وأنه إمام الأمة وصاحب الهمة، وأن من بطأ به عمله ضاع عليه نسبه..

إنه سيدنا وشفيعنا ونبينا.. إنه صاحب القدر الرفيع والمقام المحمود، فاعلم أن من بات غاضبًا لأجله من قلبه

فإنه مع المخلصين، ومن مات دون رسول الله صدقًا كان رفيقه في الجنة..

ألا تذكر أُحد؟ قلت بلى

قال ألم يقل من يدافع عني وله الجنة؟

قلت: بلى..

قال فإن الوعد قانون وإن الأمر مكفول وإن الجنة تسع الأولين والآخرين..

كل عِرض يهون دون عِرضه، وكل دم يسيل دون سوء ذكره، وكل أبنائنا وأهلينا فداءً له.. ألا تدري أنه يرد السلام على من سَلَّم !؟

قلت: بلى.

قال فإنه يعطي الوعد لكل من دافع دونه، إنه هو الذي يصلي عليكم وأن صلاته سكنًا لكم..

اللهم إني أبرأ إليك من كل فاجر متكبر جبار.. اللهم اجعلنا فداءً لرسول الله.. اللهم احشرنا تحت لوائه..

ألا يا خيل الله اركبي.. عند هذه الكلمة قاطعت الدرويش متسائلًا: أي خيل لله تركب؟! الخيل بيعت.. والفرسان تخنثوا والسيوف تكسرت يوم كان التطبيع..

عن أي خيل تتحدث والأقصى أسير.. والكعبة خالية والأمراء يهود، والشعوب خاوية، والقلوب هواء.. وما أكثرهم ولو حرصت بمؤمنين!!

صرخ قائلًا:

إن الله يدافع عن الذين آمنوا، وإن أعظم الذين آمنوا رسل الله، وأعظم رسل الله محمد -صلى الله عليه وسلم- وإن وعد الله حق.. وما يعلم جنود ربك إلا هو..

يا خيل الله اركبي..

اللهم إن لم تُهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض بعد اليوم..

اللهم إن عدونا تجبر، وامراؤنا خانوا، وجنودنا تاهوا، ورايتنا نُكست وأنت أعلم بذنوبنا وبنا..

اللهم صلاحًا من عندك توقظ به القلوب وتحيي به الهمم، اللهم كن كما وعدتنا، وافتح القلوب الغلف والأعين العُمي والآذان الصُم..

يا خيل الله اركبي..

اللهم جندك الذي لا يعلمها إلا أنت، اللهم اكشف الغمة وردنا إليك ردًا جميلًا..

كانت دموع الدرويش تبلل لحيته، وكان الألم الذي يغمر كلماته كطوفان نوح، والحزن الذي في عينيه حزن ماشطة ابنة الفرعون وأبنائها يُقتلون..

ثم قال الدرويش قوم نصلي وندعي.. صلى بي ركعتين في الركعة الأولى قرأ "إن الذين يؤذون النبي"، وفي الثانية "تبت يدا أبي لهب وتب" وجلس في محرابه يبكي.

لم يكسر البكاء غير صوت مديرة المنزل تقول بصوت مخنوق ودموع مسكوبة:

- الأكل جاهز يا مولانا.. اتفضلوا..

[٣٤]
إلى من تكلنا يا غياث المستغيثين

التقيته في صلاة الفجر في المسجد الكبير، كان على غير عادته متغير اللون والمزاج، صحبني نحو مستقرنا المعتاد بعد الصلاة، قال لي إنت فين يا شيخنا؟!

لتظهر نجفة قائلةً في عجالة:

ما بلاش شيخنا دي.. سيبه كده حلو ومنور هي مش ناقصة مشايخ.

كشفت عن ساقيها لتعبر قطرة ماء آسن في شارع المعز مخافة أن يُلوث ثوب عفتها الملطخ بالترتر.. لم يلتفت إليها الدرويش وقال مؤكدًا كلماته السابقة:

إن مكانش الأووستاذ شيخنا، أومال مين يبقي شيخنا؟ حدثته متعجبًا:

العفو يا سيدنا إنت مالك مش على طبيعتك!!؟؟

كان نور الصبح يخرج من بين حجارة حائط قديم لم يسقط رغم قدمه، بينما تهاوت حوله البنايات الجديدة، كان هذا النور خجلًا وهو يمسح من طريقة كل هذا الظلام المصنوع مما كسبت أيدي الناس.

انحنى الدرويش لشعاع ضوء الشمس حتى يأخذ طريقه إلى دروب شارع المعز، بينما فتحت نجفة زراير الفستان الأزرق المشرب بحرقة الأيام الخوالي، لتصدم النور بنصف صدرٍ عارٍ عله يتوقف عن المسير، وربما لينير ظلمات ضلوعها المكلومة.

توقف نور الصبح عند نجفة، ليظل ظلها يقبع مع الظلام من ورائها مانعًا كل ضوء من كسر ظلم وظلام الحجارة المقطوعة من جسد جبل المقطم الذي لا ذنب له، نظرات الدرويش تمسح تفاصيل المشهد ولسانه ينطق:

أما قبل..

فإنه لا قِبَل لهم بمواجهة جالوت وجنوده، وأما الذين آمنوا فما سمع أحدهم قول سيدهم "كم من فئة قليلة غلبت".

ثم اتكأ على عصاه ونظر في سماء ملكوته وصرخ:

إلى من تكلنا يا جبار كل مكسور؟! يا من لا يخفى عليه حالنا، أغثنا يا غياث..

أزاح ضوء شعاع النور نجفة من طريقه بعد أن اشتد عوده -بصوت الدرويش- وسيارة عابرة لا وارد لهم يدلي بدلوه انحدرت في نقطة الماء الآسن لترسم وجوهنا جميعا بقطرات ماء لوثتها الأيام والأقدام والأقدار وترتر نجفة، وكاوتش العربة المائلة، وروث الحصان الجامح، وظلام ظل صدر النجفة الشاردة في الأرض البور.

نال وجه كل منا ما ناله من الماء الآسن، وتعالى صوت نجفة يلحق بالسائق المُسرع:

- وحياة أمك يا ابن بياعة الممبار لأوريك، رد عليها بعد إشارة من يده غير لائق ذكرها قائلًا:

- يا ريت توريني وأوريكي، يا أصلي إنت وأمريكي، وضحكة من معدة خاوية، وقلب لم يتغير دنسه، وبؤس من قهر مُصفى.
كان جيش النور غير قادر على إزالة كل هذه الظلمات التي خلفتها الكلمات والإشارات والتدني، حتى أن الدرويش مسح بطرف ثوبه بعض الكلمات التي لم يقو
النور على مسحها أو عبورها.
مِلت إلى كومة تراب في جانب من الشارع وحملتها لأسد بها حفرة الماء الآسن فقال الدرويش:
لقد صنعت من الماء طينًا آثم.. ما هكذا ينصرف الذئب إن أرضًا تلعب وعولها مع أسودها ليس بمستغرب أن تخطف لبؤاتها الذئاب..
عم بسطويسي يجر سيارة الفول من النور إلى الظلام وينادي بأعلى صوته:
أكل الملوك يا عنب القدرة يا فول..
الدرويش يقول:
- ما أكذب الملوك الذين لم يأكلوا الفول يومًا وعلموا مثل هذا المسكين أن يقنع أمثاله من المساكين أن هذا الذي هو أدنى هو طعام الذين يأكلون الذي هو خير.
انبتت الأرض أناسي كثيرة وكأنهم خرجوا من بين حجارة الأرض التي رصف بها شارع المعز، وتحلقنا حول عربة الفول، أنا والدرويش ونجفة وابن بائعة الممبار

وبعض الكلاب الضالة وبعض من ديدان الأرض والسحالي، وغراب لونه أبيض نتج عن تزاوج حمامة مع ديك رومي في خلسة من مراقبة صاحب المزرعة، وبعض الحيات والأفاعي وابن آوى، وسندس الخاطبة وتوكتوك مكتوب عليه "الشقاوة فينا بس ربنا هادينا" وجموع من حطام شتى..

وها هنا قال الدرويش:

أما بعد..

انتبه كل عاقل وغائب وحضر كل شارد ووارد وأخرجت الأرض أغصانها..

أيها الناس إن المعصية لتدخل صاحبها الجنة بنور ألم قلبه.. وإن صالحًا يدخله غرور صلاحه النار بكبر في نفسه..

ثم خر على الأرض من ساعتها، ونجفة تصرخ

والناس حلق حلق، وأنا استشعر نبض قلبه، وأنادي من قلبي..

يا غياث المستغيثين أغثنا..

[٣٥]
من الطارق !!؟؟
بلغ صاحبك منا السلام

الخامسة والنصف من بعد صلاة المغرب، الباب يدق ومسؤولة المنزل تسأل:

ميين؟ وصوته الحبيب إلى قلبي يرد:

أنا من أهل الدار، صاحب المقام موجود؟

كنت أجلس أمام التلفاز، وقفت من فوري حين ربتت على قلبي أُلفة صوته، فتحت الباب أنظره ونور وجهه يضيء ما حوله..

إنه الدرويش..

في حُلته الأنيقة وغطاء رأسه الأخضر الزرعي، ومسبحته الكبيرة وابتساماته التي تسبقه بألف ألف فرسخ، وتعقبه بمائة ألف عام من النور والهدى والسعادة، احتضنته كي استمد بعض من هدوئه وحنانه وطيبة قلبه.. إنني أتغلب على وجع الحياة بهذا الدرويش..

نجفة تقف من خلفه وكأنها ظله الذي لا يفارقه أبدًا، لتقول كالعادة وأنا احتضنه:

"يا بختك يا سيدنا".

كانت عيناها تفوح بكل حلم وإفك وإثم، وبعض من أيام لم يغسل بؤسها نور عينيها الباهت في لحظات حضور العقل الشارد أمام نظراتها إليّ منذ أن صَبَّت الماء على ذراعي لأتوضأ أمام حمام المُنكر في الشارع الجانبي عند المِعلمة حسنات..
قلت اتفضلوا يا أسيادي، لم تعط الدرويش فرصة لترد بدلال آثم:
دا إنت اللي سيدي وتاج رأسي.. والله سلامات يا الأووستاذ يا سيد الناس كلها.
جلس الدرويش عن يميني لتقفز نجفة إلى يساري، بعض من الهواء البارد يأتي من ناحية النافذة، ناديت أماني مسؤولة المنزل "حضري أكل يا أماني"
بادلتني أماني نظرة أعرفها -فهي صعيدية كريمة وأنا تعلمت منها كرم الضيافة- لأرد عليها بنظرة أدركت منها أن تخرج بطة من الفريزر وتبدأ فى الطبخ.

حدثها الدرويش بوجه بشوش:
إزيك يا ست البنات.. اعمليلي شوية شاي من إيدك الطيبة..
ذهبت تخلفها نجفة تتمايل داخل الحلم الأبدي وهي تقذف بكلماتها المخلوطة بألف معنى:
"يا بختك يا أماني".. مش عايز طباخة يا الأووستاذ؟! والنبي لو جربتني ما هتسلاني.
إحمر وجهي -لفهم ما فهمتموه الآن- لكن ضحكة تكسر صوت الموج بقولها "أنا قصدي في الطبيخ"، وضحكة جعلت الجيران يطرقوا على الباب سائلين عايزين بوليس الآداب ولا نقضيها صُلح!!

خلعت نجفة ثوبها الأسمر لتقف بملابس ضيقة وكأنها في بيتها والحِجة موجودة "والله أنا اللي هطبخ وتدوق حلاوة طبيخي"، وقفت تغني بصوت مسموع..

من حبي فيك يا غالي.. يا غالي من زمان

لا بخبي الشوق ولا أداري ..وأداري ليه يا مان؟؟!

أنتحينا أنا والدرويش جانبًا ليقول لي:

بلغ صاحبك منا السلام فإنا والله نحبه فوق ما يحبنا

قلت له أي صديق تقصد؟

قال: طارق صديقك، ذلك الذى ذكرك بنا وإنَّا والله أبدًا ما نسيناك..

بلغ صاحبك منا الحب وقل له حبك يبلغنا ولك في القلوب مقام العاشقين..

بلغه أن القلوب لا يفصلها مكان ولا زمان، وإنَّا وإن كنا عن بعاد فإن للقلوب وصال المحبين..

بلغه أن له عندنا مَقام ومُقام، وإنه لما افتقدنا ذكرنا ولما ذكرنا رآنا.. ولما رآنا أنار بجمال طلوعه ظُلمة غيابنا.

يا صاحبي..

إن للقلوب ملائكة سيارة، وإنا لنلقاها وما برحنا موضعنا وإن لكل قلب مكان ومكانة، خَبِر صاحبك حُسن مكانه وعلو مكانته ودلنا عليه فإنا بالشوق له قادمون.

قلت للدرويش:

- أو قد شغلك صاحبي عني!!

فقال الدرويش:
- أما صاحبك فذكرني، وأما أنت فوعدته بزيارتي، وأنا قد جئت لكما ما يمنعني عنكما أرض ولا يفصلنا جُب بئر، جاءت نجفة تسأل:
- تحب البط محشي يا الأووستاذ، وأنا أكف نظري، وأعف بصري، وأغض آذاني عنها، قلت لها دون أن أنظرها:
- سيدنا اللي يختار، ضحكت بصوت يفوح بكل هرمونات الغدة القابعة تحت رأس الشيطان ليلة الطرد الأولى، وعادت وظلها يتلوى على الأرض التي أنظر فيها وهي تغني..
يا سعده اللي عرف مرة حنان الحب وقساوته
ويا قلبه اللي طول عمره ما داق الحب وحلاوته..

[٣٦]
اليوم المبارك

إن أرضًا فيها ألف ألف من الخراف الضالة عليها ألف ذئب من الذئاب المستأنسة، وألف كلب لم تحفظ يومًا وِد الراعي لحريٌ بهذه الذئاب أن تأكل الخراف تحت ظل عرش تواطيء الكلاب.
وإن ألف ألف شاة باقية سوف تصبح في الغد خراف مستذأبة، وسيكون لها أنياب، وستأكل الخراف اللحم وتشرب الدم فلن يرضيها بعد ذلك أكل العشب.
هكذا بدأ الدرويش الحكاية..
كانت الساعة تدق الثانية عشرة ليلًا.. الدقيقة الأولى في اليوم المبارك ٢٥ يناير عيد البعث من الموت، هكذا أسماه الدرويش..
عند مطعم حبايب السيدة أخذته وقلت آكل أنا وهو ربع مِشكل، سألته ما حَلَّ بك -يا سيدي الدرويش، قال: سمعتك تتكلم عن صاحبك الذي عضه الذئب فقلت تلك ليلة تولد فيها الآلام، تلك التي لا تضيع عند رب الأنام وأنها والله ليلة من ليالي القدر وإن صباح يومها يوم من أيام الله.
حدثته:
- قل لي كلام لا استفت فيه شيخ بعدك.. فقال:
- وهل لمثلي مثل هذا المقام، لكنني أقول مقال الحبيب

"قل آمنت بالله ثم استقم"، سألته:
ألهذا الليل من آخر!!
فكان رده: مثل "فلق الصبح ولكنكم تستعجلون"
قلت عِظني فإني والله في شوقٍ للموعظة..
فقال:
البر لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والديان لا يموت..
افعل ما شئت فكما تدين تدان.

كانت نجفة تقف خارج السيرة مستندة إلى نافذتي يعوي عليها كل كلاب وذئاب المنطقة، عبرت الشارع إلى الجهة الأخرى متحججة أنها ستأتينا بحاجة ساقعة، قال أحد ذئاب الأرض لها:
جاية ولا النوبة الجاية؟!
لم ترد إلا بنظرة صوبتها نحوي ملخصها أنا ألف من يتمناني، عادت تحمل الواقع المرير والحلم المستحيل لتمر سيارة يصدح فيها الكاسيت "وآه لو لعبت يا زهر" تمايلت دون حرج مما دعا الذئاب الواقفة إلى التصفيق بحرارة.
وزعت نظراتها المتصلة بمعمل تصنيع الفياجرا ليقوم أحدهم وهو يمر إلى جوارها على دراجته بضربها على مؤخرتها ويقول "ما تيجي ونجيب مليجي"
لترد عليه بما لا يمكن وصفه بداية من "قول لأمك تيجي وأنا أجيب لها الخليجي" إلى أشياء أخرى من داخل غرفة الرزيلة.

أغلقت الزجاج وقلت للدرويش:
أظن مفيش أمل.. فقال الدرويش:
اعلم أن هؤلاء حق عليهم الاستبدال، وسلطت عليهم ذئاب ربهم عقابًا لشرودهم فإن حظيرة الله ملئ بخرافه وإن تلك الذئاب إنما هي العقاب، فمن دخل الحظيرة نجا ومن شرد أكلته الذئاب الضالة، واعلم أن الاختبار إنما يكون هكذا لا مودة ولا مروءة فيه.
ويمر رجل في ثياب الزاهدين تلقاه نجفة بفتحة صدرها المؤدي إلى الجحيم يصرخ من قاع ملذاته..
مدد ومن غير عدد..
بركاتك يا أم العِدَد..
واضح إن مفيش أمل.. هكذا قلت للدرويش.
فقال:
كلا.. أنت تنتظر النجاة والقدر يصنع الانتقام.
{إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب}..

[٣٧]
طهر لي في قلبك بيتا أسكنه

رسالة من الدرويش يقول لي فيها:
هل هانت عليك محبتنا فاخترت في الطريق رفيقًا غيرنا؟ ألم تعلم بأن القلب يرى وأن ما دون غيابه الورى! ألم نكتب على صفحات قلبك حبنا فكيف يا رفيق الدرب هانت حظوظنا؟!
ما كان في قدري أن أرد عليه بكلمات فإنني غارق في إثم التقصير.. الفجر على أبواب الليل يدق وأنا أقف عند ناظريه أعتذر، دموع عينيه أغرقتني وأخجلتني فجلست على ركبتي تحت قدميه، وقبلت يديه من بعد رأسه، وأسندت رأسي على مفرق الألم عنده فقال:
أنا قلت أسيبك وأشوف إمتى الفراق هيجيبك!!
لم أتكلم خجلًا، فقد غبت عنه كثيرًا وما لي من عذر..
أخذ بيدي وأجلسني بجواره وقال هذا مقامك عندنا يا صاحبي.
زغروطة حلوة رنت وتردد صداها، وصوت هرولة وخلخال نحاسي من درب شكامبه، وتضاريس تهتز عن عمد وغير عمد، وكلمات من الشباب الساهر على نواصي الإثم، ونجفة تجري حافية القدمين، لم تغلق ملابسها التي لم تكن تبشر بخير، ليقول قائل منهم:
"هز يا وز.. ويا بختك يا أوستاااذ"

وقال نصف مجنون "يا ريتني كنت أنا" ثم ضحكات بصوت المُنكر تملأ المكان.

لم تعطني نجفة فرصة واحتضنتني في الشارع وأنا متيبس على حالي، حاولت ستر ما انكشف من صدرها خجلًا مني، فناولها الدرويش قطعة من لفافات الستر الآيلة للسقوط، كانت على وشك البكاء وعلى حافة الاعتراف، إن غيابك واجعني أكتر من الدرويش.

ناديت على امرأة تجلس على قارعة الفجر تبيع جلاليب سود عليها طاووس مرسوم بحبات الضوء المعتم، اشتريت واحدة وقلت لها:

- دي هتبقى جميلة عليكي لم تتردد فى أخذها ولبسها في الشارع لتستر ما لم تستره بقايا الغياب ثم جلست صامتة.. قلت الدرويش:

-لك والله وحشة.. كانت نظراته تغلب كلماتي الجوفاء وكأنه يقول بعينيه "من إمتى وإنت بياع كلام؟" قلت له:

غلبني الذي يغلب الناس، إنها طاحونة الليالي، ثم قلت له:

أنا مش عارف أنا إزاي غبت عنك كل ده؟! ثم أصابني الصمت، فقال الدرويش:

ألم تسمع قوله تعالى:

"فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا"

كل ليل ومكتوب على أقداره فمحونا..

وكل نهار ومكتوب على أقداره لتبتغوا ولتعلموا..

فاعلم يا صاحبي أن طول الليل إيذان بنور الفجر..

واعلم أن الفجر لا يأتي حتى يشق النور حلل الظلام..

وأن ساعات نهاية الليل هي ساعات اختبار الصبر..

فإن اللحظة الأخيرة قبل إفطار الصائم هي أشد اللحظات جوعًا وعطشًا وألمًا وصبرًا واختبارًا.

وعلى كل ليل مكتوب سبيل الاختيار، الخائفون في الليل ولا ينتظرون الفجر قد خسروا إيمانهم بالصبح، أما المؤمنين فإن الليل لهم هو سبيل الناجين، هؤلاء كانوا قليلًا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون، هؤلاء الذين علمهم ظلام الليل أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

صوت نحيب من خلفي يقطر ألمًا وخوفًا وندمًا وعتابًا، كانت عيناي غارقة في الخجل وقليل من الدمع، التفتت إلى نجفة لأجد نظرة عتاب حانية هاربة من سنوات الإثم والألم والتبرير، تلك لحظة من لحظات التقرير..

صوت الفجر يؤذن، قال الدرويش:

كلنا في حاجة أن نتطهر بالرحمة قبل أن نغتسل بالماء،

ألم نكتب يومًا..

"يا إبراهيم طهر لي في قلبك بيتًا اسكنه".

[٣٨]

غلبني النوم قبل صلاة الفجر وغلبتني نفسي الضعيفة عن البقاء منتظرًا خير الأسحار، فما أن انقضى الفجر حتى رأيت الدرويش ينادي "اصحى يا نومان"

استيقظت بسهولة على غير عادتي، قمت وصليت الفجر ونزلت له، النهار لم يشرق بعد لكن صباحًا لم تلوثه الذنوب قد ولد للتو، الشمس تزاحم الليل في الوجود وها هي بعد قليل تطل علينا..

جلست إليه في مكاننا المعهود، يحدثني وإلى جانبه تلك التي لا تنسلخ عنه منذ رأيته للمرة الأولى في هذه الحياة الدنيا:

مالك حكاياتك مليانه حواديت، إنت غاوي شهرة ولا عجبك التصقيف؟!

ردت نجفة وقد رفعت حاجبها قائلة:

وكله كوم وتوحة المجروحة كوم تاني قلت لها دي مش توحة صاحبتك اللي في الفندق، دي حكايات من وأنا صغير قصدي منها الحكاية، وأحيانًا ممكن يكون فيها حاجة مفيدة.. قالت نجفة:

- خليك في الرجالة وبس.. أهو اللي كان واخد سكينة في قلبه دا كانت حكاية حلوة، فقال الدرويش:

- اعلم يا صاحبي أن لكل قلب مقام فاقم قلبك حيث تقيم، النفوس جُبلت على حب الثناء وكل ثناء يُكتب به في القلب كِبر أو استعلاء..

واعلم أن الصمت ملك الكلام، وأن الزُهد زاد ملوك الملكوت لا ملوك القوت، واعلم أنه من لم يُطهر قلبه غلبته نفسه وغلبه الهوى وهو لا يدري.

اعلم يا صاحبي أن على الطريق أعداء، وطول الطريق يغري بالراحة لكن العاقل من عرف أن طول الطريق كاذب وأنه سرعان ما ينقطع، وأن كل قدوم ليل معه خوف ألا يولد الفجر الجديد..

أتذكر صباك مخافة الغروب وتقلب القلوب وحلم أن يحل الموت محل النوم ويكون الغروب؟!

يا صاحبي كل شروق شمس وعد سديد وفرصة قد لا تحل من جديد، إن كل صباح عطاء للسجين المسكين أن يؤوب ويتوب، وإلى ربه يعود، مالي أراك تغريك الدنيا بأعمال الوجوب.. ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل..

كانت الكلمات حارقة على جرح التوبة لكنني كنت صامتًا في محراب كلامه، قلت له:

- ليس هذا بقصدي ولا تلك نيتي.. فقال:

- اعلم أن الكلام كالماء المالح يغريك بالكثير، وإن موجات البحر تُخفي عنك ما ورائك من الشط الآمن..

طوبى لمن ظلت أقدامه ولم تزل..

طوبى لمن ربط نفسه بالأرض الصلبة ولم يصدق الماء..

طوبى للبسطاء، الأنقياء والشرفاء فإنهم وإن قل ذكرهم فهم ورثة الأنبياء..

طوبى للهالكين في طريق السالكين..
طوبى لهم وحسن مآب..

لكن نجفة كسرت جمال الكلمات حين قالت:
والله ما حد عايز الطوبة دي تشق دماغه غير توحة ولا دي اللي اسمها أم عبير، قال هي الحكاية ناقصاهم!!

[٣٩]
لقاء خارج منظومة الزمن

لم يكن من العسير أبدًا أن تكتب الأقدار لقاء كل هؤلاء مرة واحدة، الدرويش والمجنون والحسناء ونجفة، وبعض من العابرين الجدد من الماء إلى اليابسة وبعض الذئبان المستأنسة.

رن جرس المنزل ففتحت أماني المسؤولة عن حياتنا منذ زمن ليس بالقليل، كان صديق العمر بيسو -كلب السكك- ومعه مجنونته وولديه عمر وحمزة، صرخت أماني:

-يا دكتور الأستاذ بيسو كلب السكك..

تلقت أماني نظرة مخيفة من حسنائه، لكنه ضحك بصوت عالٍ سمِعْتُه من الداخل، ولولا أن معه حسنولا كنت خرجت له من تحت الدش بأقل الملابس فرحًا به، لبست بسرعة وألقيت نفسي عليه وأنا أصرخ فيه بصوت لا يسمعه غيره "واحشنى يا جبان.. كل ده متجيش أشوفك"

ظل يحتضنني فترة، ثم قبل رأسي قائلًا "حقك عليا"، ونادى على أماني قائلًا:

- منونة أنا جعان جوع التنين والسنين -هذه اللغة لا تريح حسنولا حتى لو كانت أماني خارجة لتوها من بئر زمزم- قالت أماني:

- خير ربنا كتير اللي حضرتك تطلبه، احنا عاملين النهاردة بط ومحشي أصل الدكتور صايم..
توجه إلى المطبخ وفتح الحلل وبدأ يأكل أو على رأيه "بس بأدوق"..
كنت أراه ولدي الأكبر يزورني بعد زواجه ليتذكر طعام أبيه، وقال لأماني:
- إغرفي ليا أنا والعيال زمانهم جعانين.. ثم أخرج كبدة البطة وجاء بها بين أصابعه ليتذوقها قائلًا:
- البط عندكم حكاية تانية، بقى عاملين بط وناسيني؟!
رن الجرس مرة أخرى لتفتح أماني وتقول:
"صلاة النبي أحسن" الحبايب بيهلوا مرة واحدة، سيدنا الدرويش يا دكتور ومعاه نجفة اللهم لا اعتراض -بصوت منخفض- قمت فقبلت يد الدرويش، بينما كانت نجفة
تنظر بيسوا من طرف عينها قائلة:
إزيك يا أستاذ بيسوا والله سلامات.. وبيسوا غارق في حتة الكبدة اللي في إيده، وفي قلقه من سواد اليوم ده واللي هتعمله حسنولا.
انهيت حضن الدويش لأجد نجفة من خلفه تقول:
هو أنا يعني بنت البطة السودة!!
قلت لها أهلًا وسهلًا يا نوجة يا مرحب، فقالت بلغة ساقطة "أهو كلام وبس مباخدش منك غير كلام"..
الأجواء تحمل كل المتناقضات، تحلقنا حول الدرويش الذي جلس على سجادة على الأرض ومسح يده بها ليجدها ناعمة فيقول {ولتُسألن يومئذٍ عن النعيم}، قالت أماني للدرويش:

صايم يابا الحاج ولا ذي الأستاذ بيسو؟!
وضحكة من حنجرة نجفة تقطع أكباد الإبل في الصحاري ثم تتجه إلى المطبخ مع أماني قائلة:
- أنا اللي هجهز الأكل.. ثم ترمي عينها على حسنولا قائلة:
- إيه الستات اللعبة دي!! وبصوت تسمعه أماني تقول دي شكلها مبتقومش من قدام المراية.. وبصوت غائر في الوحل مع هز لزوائدها الإنسانية تقول:
"عَجِبتُ لك يا زمن".
كنت أجلس مع الدرويش على الأرض ليقول لي كلماته التي تحميني وتحييني، قال الدرويش:
أنا قلت دي العشرة العظيمة وأفطر معاك أول يوم
ثم أردف يقول:
- تلك الليالي العشر، إنها والله أيام ما بعد الفجر.. ثم نظر إلى بيسو يقول:
- كلٌ ميسرٌ لما هو له، وإياك وغلبة الرجال فإن سجن الأرواح أقسى من سجن الأجساد، وإن وعيد سليمان لأعذبنه كان أن يحبسه مع طير من غير بني جنسه وعشيرته، ثم نظر إلى الحسناء ليقول:
طوبى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد..
طوبى لهؤلاء الذين ما ملكت الدنيا قلوبهم لأنها لم تجد فيها مكانًا لها..
طوبى للعامرين بحب غير الدنيا..

طوبى للبسطاء، من بطأ به قلبه لم يشفع له لسانه وويل لمن تطهرت ثيابه وتدنست ذاته.. ويل لمن وضع نفسه فوق ما خُلقت له فأعزها وأذل روحه..

طوبى لمن غلبوا ملذات الدنيا حتى صاروا فيها ضيوفًا..

طوبى لمن آمن واجتهد..

طوبى للصالحين حيثما ارتحلوا..

ثم نظر إلى وقال:

الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم، ثم استطرد:

اعلم أن طهارة القلب مقدمة على طهارة البدن، واعلم أن ثياب العجب طريق النار.. اعلم أن لله عند عباده حقوق وزيادة، فأما الحقوق فواجبات واجبات.. وأما الزيادة فتغفر الزلات.

ثم وضع يده على صدري ليقول:

"إلا من أتى الله بقلب سليم".

ثم كان صوت آذان المغرب لنفطر جميعًا ونكمل بعد الصلاة..

طوبى لمن عرف الطريق فسلكه ولو سار فيه وحده..

☆تعريف بالكاتب☆

★ الأستاذ الدكتور عبد الناصر محمد النجار.

★ مواليد قرية شرباص، محافظة دمياط، يناير ١٩٦٧.

★ حصل على بكالوريوس الطب، جامعة القاهرة، عام ١٩٩٠، بتقدير عام امتياز مع مرتبة الشرف.

★ حصل على الماجستير فِي عام ١٩٩٤.

★ حصل على الدكتوراة فِي الجراحة عام ١٩٩٨.

★ أستاذ بكلية الطب منذ عام ٢٠١١.

★ رئيس قسم جراحة التجميل، كلية الطب، جامعة بني سويف حتَّى عام ٢٠٢٣.

★ حاصل على ليسانس الحقوق عام ٢٠٢١.

★ عضو الجمعية العالمية للتجميل **ISAPS**

★ عضو الجمعية المصرية للتجميل **ESPRS**

★ الإصدارات السابقة ★

★ حكاوي المندريش.. "نثريات" عن دار إبهار للنشر والتوزيع ٢٠٢٣م.

★ يوميات طالب من الأرياف.. "سيرة ذاتية" عن دار إبهار للنشر والتوزيع ٢٠٢٣م.

★ البر التاني.. "رواية" عن دار الزيات للنشر والتوزيع ٢٠٢٣م.

★ إصدار وصول النيزك عن دار الزيات لسنة ٢٠٢٥

المُحتَوَيات

(١) لولا كورونا لشككت أن الله موجود!! ٧
(٢) بلد ملهاش كتالوج..... ١٢
(٣) كل ليل وله نهار يزيحه..... ١٦
(٤) أَطْعِم..... ٢٠
(٥) فندق الشريفة..... ٢٥
(٦) وإذا العناية لاحظتك عيونها..... ٢٩
(٧) إدعي من قلبك مش من قلقك..... ٣٣
(٨) الطوفان والسفينة..... ٣٧
(٩) أين الله؟!..... ٤٠
(١٠) مدد يا أسيادنا محتاجين النجدة..... ٤٤
(١١) كورونا الرسول..... ٤٧
(١٢) بركاتك يا ثِقلي..... ٥١
(١٣) دخول التخشيبة كله هيبة..... ٥٥
(١٤) من حُسن إسلام المرء..... ٦٠
(١٥) في حمام التلات..... ٦٦
(١٦) إن الإنسان لفي خُسر..... ٧١
(١٧) لا حظر اليوم..... ٧٧
(١٨) حرب بالوكالة..... ٨٢
(١٩) الغُربة..... ٨٩

(٢٠) لحظة على الهاتف مع الدرويش النوايا التي لم تسند الزير .. ٩٣
(٢١) التعميرة والتخريبة..... ٩٨
(٢٢)..... ١٠٣
(٢٣) الذُل إكسير الحياة..... ١٠٤
(٢٤) إنت بتأذن في مالطة..... ١٠٨
(٢٥) بركاتك يا دايب..... ١١٣
(٢٦) عذب الكلام ١١٨
(٢٧) طوبى للبسطاء..... ١٢٣
(٢٨) إنك لكبيرهم الذي علمهم الحُب..... ١٢٨
(٢٩) بين يدي الدرويش..... ١٣٢
(٣٠) واصطنعتك لنفسي ١٣٨
(٣١) دا الدرويش طلع حكاية ١٤٢
(٣٢) حُب وضياع..... ١٤٦
(٣٣) يا خيل الله اركبي..... ١٤٩
(٣٤) إلى من تكلنا يا غياث المستغيثين..... ١٥٣
(٣٥) مَنّ الطارق !!؟؟ بلغ صاحبك منا السلام..... ١٥٧
(٣٦) اليوم المبارك..... ١٦١
(٣٧) طهر لي في قلبك بيتًا أسكنه..... ١٦٤
(٣٨)..... ١٦٧
(٣٩) لقاء خارج منظومة الزمن ١٧٠
☆ تعريف بالكاتب ☆ ١٧٤